

الفصل الثالث والعشرون

انتصار الفلاسفة

١٧١٥ - ١٧٨٩

١ - رجال الدين يصدون الهجوم

كان هناك الكثير مما يقال من أجل المسيحية . مما قاله المدافعون عنها في قوة وحيوية ، أحيانا مع سسؤ تقدير أعمر للعصر ، وأحيانا في رقة ووضوح توقعتهما فرنسا حتى من اللاهوت . وهناك من رجال الكنيسة من ظل يصر على أن أى انحراف عن المذهب الكاثوليكي المحدد يجب أن تعاقب عليه الدولة ، وأن مذبة سانت برثلميو عملية مشروعة مثلها في ذلك مثل أية عملية جراحية^(١) . ولكن كان هناك من قبلوا التحدى وأخلوه مأخذ الرجال الكرام الشرفاء وأجازوا للأعداء أن يختاروا السلاح ، وهو العقل . وكانت لفتة كريمة . فأن الدين إذا أرتضى العقل كان في هذا بداية موته وفنائه .

ونشرت فرنسا فيما بين عامى ١٧٠٥ و ١٧٨٩ نحو تسعمائة كتاب دفاعا عن المسيحية ، منها تسعون في سنة ١٧٧٠ وحدها^(٢) . أن كتاب ديدرو « أفكار فلسفية » ، وكتاب هلفشيوس « الذكاء » ، وكتاب روسو « أميل القرن الثامن عشر » ، استلزم كل منها نشر عشرة كتب لتفنيده والرد عليه . أن الراهب هوتفيل في كتابه « الديانة المسيحة كما تثبتها الأعمال » (١٧٢٢) أكد (مثل رئيس الأساقفة ويتلى Whately بعد ذلك بقرن من الزمان) أن المعجزات التى تثبت قدسية المسيحية ثابتة بشكل موثوق قدر ثبوت الأحداث المقبولة في التاريخ العلمانى . وفي مجلدين اثنين نشر الكاهن

جويون Guyonh كتابه « مهبط الوحي عند الفلاسفة الجدد » (١٧٥٩ - ١٧٦٠) وهو كتاب هجاء ونقد . ونشر الكاهن بلوش Pluche كتابه « مشهد الطبيعة » في ثمانية مجلدات (١٧٣٩ - ١٧٤٦) . وظهرت منه ثمانى عشرة طبعة غالية الثمن ، عرض فيه عجائب العلم وأدلة التدبير المقصود فى الطبيعة ليثبت وجود إله أسمى فى العقل والقوة . وإذا وجد العقل البشرى بعض الالغاز فى المشهد الضخم ، فيكن متواضعا . ولا ينبغي لنا أن ننبذ الإله لأننا لا نستطيع فهمه وأدراكه ، ولنقدم له فى نفس الوقت الشكر على بديع صنعه . أما الأب جوشا Gauchat فإنه فى ١٥ مجلدا بعنوان « رسائل نقدية » (١٧٥٥ - ١٧٦٣) هاجم فرضية التطور عند بيغون ودييرو وغيرهما ببرهان طائش « إذا كان الناس يوما أسماكا فأن هذا استتبع واحدا من اثنين ، فإما أنه ليس للإنسان نفس روحية خالدة ، أو أن للأسماك مثل هذه النفس ، وكلماتها فرضية تنافى التقوى والدين »^(٣) . ووافق الفلاسفة فرجين مهلين . وأكد الأب سيجورن Sigorgne فى كتابه « الفاسفة المسيحية » على لزوم الدين دعامة للأخلاق ، فأن القيود العلمانية الخالصة تؤدى فقط إلى شحذ إذهان المجرمين الذين لا يعودون يؤمنون بالله البصير بكل شىء . وفى ١٧٦٧ نشر الأب شاندىن Mayeul Chandon القاموس المضاد للفلسفة ، وقد ظهرت منه سبع طبعات . أما الأب نونوت Nonotte وهو يسوعى سابق تحلى بسعة الأطلاع والثقافة مثل أعضاء طائفته^(٤) ، فإنه أخرج فى ١٧٧٠ كتابه الضخم « أخطاء فولتير » وقد بيع من هذا الكتاب أربع طبعات فى عامه الأول ، وست طبعات فى ثمانية أعوام . وفى ١٨٥٧ عد فلوبيير هذا الكتاب من بين ما تقرأ إما بوفارى . ودافع الأب جوينى Guenee عن الكتاب المقدس بروح وذوق وكياسة وتفقه فى كتابه « رسائل بعض اليهود » (١٧٧٦) . وهى رسائل توهم بأنهم صادرة من بعض علماء اليهود . وسلم فولتير بأن نقد جوينى « لاذع إلى حد بالغ »^(٥) . ووجه المدافعون الكاثوليك وابلان من النيران فى كل شهر

ضد الفلاسفة في نشرة « الدين المنتقم » . وفي ١٧٧١ بدأوا يصدرون « موسوعة منهجية » ، أوسع حتى من موسوعة ديدرو ، تهاجم كل نقاط الضعف في قلعة الشك هذه .

وواجه الماديون (أنصار المذهب المادي) خصما عنيدا في شخص نقولا سلفستر برجيه وهو راعي أبرشية في أسقفية بيزانسون . أن كتابه « الربوبية تفند نفسها » (١٧٦٥) كان « رد كاهن حقيقي على قسيس سافوى الذى إبتدعه خيال روسو^(٦) » ومن أجل كتابه « صدق براهين المسيحية » (١٧٦٧) تلقى رسالة ثناء ومديح من البابا . وفي سن الواحدة والخمسين (١٧٦٩) رفع إلى مرتبة كاهن في كاتدرائية نوتردام في باريس ، وأصبح كاهن الاعتراف لبنات الملك لويس الخامس عشر . وفي نفس العام نشر كتاب « دفاع عن المسيحية ضد مؤلف فضح المسيحية » - وهو ضربة موجهة إلى دى هولباخ . وسرت جمعية رجال الدين بهذا الكتاب فقررت له في ١٧٧٠ معاشا سنويا قدره ألفان من الجنيهات ليتفرغ للدفاع عن العقيدة . وفي بحر سنة أخرج كتابا في مجلدين تحت عنوان « اختبار المادية » وهو رد على كتاب دى هولباخ « منهج الطبيعة » وأوضح مرة أخرى أن الذهن هو الحقيقة الوحيدة المعروفة لنا بطريق مباشر ، فلم نهبط به إلى شيء آخر معروف لدينا عن طريق الذهن فقط^(٧) . وأتهم دى هولباخ بعدة تناقضات : ١ - أعلن البارون أنه لا سبيل إلى معرفة الله ، ولكنه طبق بعد ذلك على المادة كل صفات اللاتناهي والأبدية ٢ - أنه قبل مذهب الحتمية ومع ذلك حض الناس على إصلاح سلوكهم . ٣ - نسب الديانة إلى :

(أ) إلى جهل الإنسان البدائي . (ب) وحييل الكهنة ومغالطتهم .

(ج) وإلى مكر صانعي القانون وبراعتهم . - فلنتركه يقرر . وطرح الكاهن نقد العهد القديم جانبا بإيضاحه أن ناسخى كلام الله من البشر كانوا قد استخدموا المحازات والاستعارات الشرقية . ولذلك ينبغي ألا يؤخذ الكتاب المقدس دائما بحروفه . والعهد الجديد هو جوهر المسيحية ، وحياة المسيح

من معجزاته تثبت قداسة الدين . ومهما يكن من أمر فإن سلطة الكنيسة لا تركز على الكتاب المقدس وحده ، بل على التسلسل أو التعاقب الرسولي لاساقفتها ، وتقاليدهم التي وضعوها للدين . وفي كتاب اختبار الدين المسيحي (١٧٧١) أكد برجيه الحجة القائلة بأن الإلحاد ، على الرغم من الشخصيات الفردية الاستثنائية التي أبرزها بيل ، قد يدمر الفضيلة والأخلاق .

وأرق شخصية في المدافعين عن الكاثوليكية من رجال الدين في القرن الثامن عشر في فرنسا هو غليوم فرنسوا برتويه (٨) . في سنة ١٧١٤ وهو في سن الثانية عشرة التحق بالكلية اليسوعية في بوج ، وهناك اشتهر بحدة ذهن لم تسيء إلى تقواه إساءة ظاهرة . وفي سن السابعة عشرة أبدى اوالديه رغبته في الانضمام إلى « جمعية يسوع » فطلبوا إليه أن يفكر في الأمر لمدة عام . ففعل وأصر على رغبته . وفي الفترة التي سبقت تثبيته راهباً في باريس أكب على القراءة والدرس والصلاة حتى إنه نادراً ما خصص للنوم أكثر من خمس ساعات في اليوم . وتقدم ونما بسرعة حتى أنه عين في سن التاسعة عشرة لتدريس العلوم الإنسانية في كلية دي بلوا ، وبعد سبع سنين قضائها هناك ، وسنة أخرى في الرهبنة ، أرسل إلى رن ثم إلى روان استاذاً للفلسفة . وفي ١٧٤٥ عينه اليسوعيون محرراً لصحيفتهم «جورنال دي تريفو» التي كانت تصدر في باريس آنذاك . وأصبحت هذه النشرة الدورية على عهده من أكثر الأصوات احتراماً في فرنسا المتعلمة .

وكتب برتويه معظم الصحيفة بنفسه . وعاش في صومعة صغيرة لم تجر تدفئتها قط ، واشتغل كل ساعات النهار ، وكان بابه مفتوحاً أمام كل من قصده ، وكان ذهنه مفتوحاً لكل موضوع ، اللهم إلا العقيدة التي كانت تعمر بها حياته وتغمرها بالدفء . إن لاهارب La Harpe أحد تلاميذ فولتير ، وصف برتويه بأنه الرجل الذي نال إعجاب العلماء والباحثين جميعاً ؛ لغزارة علمه وسعة اطلاعه ، كما نال إعجاب أوروبا لفضائله الموسومة بالتواضع . (٩) وامتاز بسحر الكياسة الفرنسية حتى عند الاختلاف في الرأي . فهاجم

الأفكار لا الشخصيات وامتدج مواهب خصومه أو معارضييه (١١). ومع ذلك فإنه دافع عن عدم التسامح الديني . واعتقاداً منه بأن المسيح ابن الله هو الذي أسس الكنيسة الكاثوليكية ، رأى أنه من واجب المسيحي أن يحول بكل الوسائل السلمية دون انتشار الخطأ الديني .. ويجب حظر الدعاية المعادية للمسيحية في أية أمة مسيحية ، لأنها تغري بالسلوك غير الأخلاقي ، وتسئ إلى استقرار الدولة . ورأى أنه من الخطأ أن نخلط بين التعصب للكاثوليكية وبين التحمس للاضطهاد (١١) ، ولكنه لم يعد بعدم مواصلة الاضطهاد . وفي سنة ١٧٥٩ رد الاتهام بالتعصب وعدم التسامح إلى الفلاسفة فقال : أيها الكفار ، أنتم تهموننا بالتعصب الذي لا أثر له لدينا ، على حين أن ما تضمرون من كراهية لديننا يبعث فيكم تعصباً لا يمكن تخيل أفراطكم الواضح فيه (١٢) .

ولم يسلم برتبيه بالحقيقة المطلقة للعقل وحتى على الاسس الحسية عند لوك ، لا يستطيع العقل أن يصل إلا إلى الحواس ، أما فيما وراء هذه الحدود ، فهناك حقائق واقعة ينبغي أن تظل إلى الأبد أسراً خفية في الأذهان المحدودة ، ومن ثم فإن الفيلسوف الحق يجد من بحثه حين لا يمكنه تحطى هذه الحدود بشكل معقول (١٣) . أن السعى لإخضاع الكون أو معتقدات الناس التقليدية والعامية لاختبار عقل فردي ، ضرب من الغرور العقلي . والرجل المتواضع يقبل عقيدة بني جلدته إذا لم يستطع فهمها . وذهب برتبيه في بعض الأحيان إلى أن الكفار ينبذون الدين لأنه يتدخل في مبادئهم ، وتنبأ بأنه إذا سادت مثل هذه الأباحية ، فلا بد أن ينهار القانون الأخلاقي ، ويطلق العنان للأهواء ، وتختفي المدنية في خماة الأناية والشهوة والخداع والجريمة . وإذا لم توجد الإرادة الحرة ، فلا وجود للمسئولية الأخلاقية . وحيث أن الحتمية لا تسلم بأي قانون يلزم الضمير ، فإن الشخص المذنب الوحيد هو الشخص الذي لا ينجح (١٤) . ومن ثم تكون الفضيلة أو الأخلاق القويمة حينئذ مجرد حساب المنفعة ، ولن يكون إحساس بالعدالة ليكبح

جماع الأقلية الذكية الماهرة في سوء استغلال سداجة الأغلبية ، ولن يشعر
أى حاكم بأى التزام نحو شعبه ، اللهم إلا المبادعة بينهم وبين الثورة بسبب
استغلاله لهم .^(١٥)

أن برتبيه كان كما رأينا قد رحب بالمجلد الأول من الموسوعة وقرظة ،
وعرض ما فيه من أخطاء وانتحالات في دقة بالغة ثم على ثقافة واسعة ،
ومن ثم أظهر أن مقالة العمل للأب بينون Yvon التي شغلت ثلاثة أعمدة
كامامة ، أخذت بنصها كلمة بكلمة من كتاب الأب بوفيه « بحث في الحقائق
الأولية »^(١٦) . وامتدح مثال « الفلسفة العربية » ولكنه أبدى فزعاً حين وجد أن
مقالة الإلحاد قد أوردت الحجج التي تساند الإلحاد على نفس مستوى
الاسهاب والقوة الذي أوردت به الحجج ضد الإلحاد ، تاركة فكرة وجود
الله في شك رهيب . وعندما أصبحت النزعة المعادية للمسيحية أكثر وضوحاً
في المجلد الثاني هاجمها في قوة وبراعة . وأوضح إن الموسوعة استمدت سيادة
الحكومة من رضا المحكومين ، وفي هذا ، في نظر برتبيه ، خطر على الملكية
الوراثية . وربما كان له أثر في وقف الموسوعة عن الظهور^(١٧) .

وفي عدد أبريل من صحيفة دي تريفو عرض لكتاب فولتير « بحث
في العادات » فقال : إنه ليحزننا أن نرى مؤلفاً حياً نقدر مواهبه
ونعجب بها ولكنه يسئ استغلالها في أكبر الأمور الأساسية . لقد رأى
في كتاب فولتير محاولة لهدم الكنيسة والدين ليشيد على إطلاهما كياناً
فلسفياً ، أو معبداً مخصصاً لإباحية الفكر ، نذره للاستقلال عن كل سلطة ،
والهبوط بالعبادة والأخلاق والفضيلة إلى مجرد فلسفة علمانية بحثة بشرية .
واتهم فولتير بتعزيز أخزي المؤرخ ، حيث عمى عمى يكاد يكون تاماً
عن فضائل المسيحية وخدماتها ، وصمم تصميمياً طائشاً على أن يلتصق لها
الأخطاء في منجزاتها وأعمالها . وقال : إن فولتير ادعى أنه يؤمن بالله ،
ولكن من آثار كتاباته دعم الإلحاد . وفي نفس العدد من الصحيفة تحول
برتبيه إلى كتاب فولتير « العذراء - جان دارك » فنقد صبره . وصاح : إن

البحيم لم يلفظ قط مثل هذا الطاعون الفتاك : . . . إن الشهوانية تعرض
هنا بكل وقاحة أبشع الصور بذاء ودعارة . إن الفحش والبذاءة تستعيران
لغة السوق . . . إنه أحط الهزل الماخن يلفظ الكفر والبعد عن التقوى . . .
إن الرائحة المنبعثة من هذه الأشعار كفضيلة بافساد ونقل العدوى إلى كل عصر
وكل حالة في المجتمع (١٨)

ولم يسارع فولتير إلى الرد ، إنه مازال يحتفظ بذكريات طيبة لمعلميه
اليسوعيين ، ولا يزال على جدران مكتبه في فرني صورة الرجل الطيب
العطوف المتدين آلاب بوري Poree (١٩) . ولكن عندما أوقفت الحكومة
الفرنسية صدور الموسوعة استجاب لتحريض دامبير وأنبرى لقتال برتية .
فاتهمه بمناهضة الموسوعة لأنها نافست قاموس تريفو الذي زعم أنه إنتاج
يسوعى (كان كذلك بشكل جزئي وبصفة غير رسمية) ، ودعا مجتمع يسوع
إلى فصل محرري تريفو . أى عمل هذا الذى يشتغل به كاهن . . . أنه يبيع فى كل
شهر من مخزن للكتب مقتطفات من آراء طائشة مفتراه . (٢٠) فرد برتية
(يوليو ١٧٥٩) بأن محررى صحيفة تريفو لاعلاقة لهم بمحررى قاموس
تريفو واعترف بأن كونه محرراً ليس عملاً جميلاً ولا مناسباً ، ولكنه تمسك
بحق الكاهن فى استخدام صحيفة دورية للاشادة بالكتب القيمة واستهجان
المؤلفات الغثة . وأسف لأن فولتير انزلق إلى المسائل الشخصية والاتهام
بالفساد والرشوة ونخم كلامه بالأمل فى أن يعود هذا الرجل ذو المواهب
العظيمة فيما تبقى له من عمر تفضلت به عليه العناية الإلهية ، يعود إلى
الديانة المقدسة لا الدين الطبيعى ، بل إلى المسيحية الكاثوليكية التى ولد فيها (٢١) .
وفى نوفمبر أصدر فولتير (وكان لاشك يتذكر الدفن الوهمى لجون بارتريدج
تأليف سويفت) ، رسالة مهيبه تحت عنوان « العلاقة بين المرض والاعتراف
والموت وشيخ برتية اليسوعى » ذا كراً كيف أن المحررات فى نوبة من الثاؤب
فوق صحيفة تريفو ، واعتذر عن أسلوبه فى الجدل فى خطاب إلى مدام ابيناي :
لا بد من تسفيه الرجس والمدافعين عنه (٢٢)

(م ١٥ - قصة الحضارة)

وفي ١٧٦٢ أمرت برلمانات فرنسا بقمع حركة اليسوعيين ، وصر برتييه حين إنتهى عمله في تحرير الصحيفة ، وآوى إلى دير للترايستيين ليحيا حياة الصمت والتأمل ، وطلب السماح له بالانضمام إلى هذه الطائفة (التي يقوم مذهبها على دوام الصمت والتقشف والزهد) ولكن رئيس اليسوعيين أبى عليه ذلك ، وعينه لويس الخامس عشر معلما لأبناء الأسرة المالكة . ولما وقع الملك مرسوم طرد اليسوعيين من كل أنحاء فرنسا (١٧٦٤) هاجر برتييه إلى ألمانيا . وفي ١٧٧٦ سمح له بالعودة ، فاعتزل كل نشاط ، وأقام مع أخيه في بوج . ومات هناك في سن الثامنة والسبعين (١٧٨٢) وكان رجلا طيبا .

٢ - خصوم الفلاسفة

حمى وطيس الحرب حين نبذت أردية الكهنة ونبذت المحاملات ، وركز الصحفيون أنظارهم على الفلاسفة ، وسخر كل ذكاء باريس وكل مفردات لغتها للشد والجذب والطمع . ولقد رأينا كيف أن فولتير تعرض ١٧٢٥ لبعض المتاعب لانقاذ بيير ديفونتين من العقوبة القانونية للواط وهي الإعدام . ولم يغفر له ديفونتين هذا قط . وفي ١٧٣٥ شرع في إصدار نشرة دورية تحت عنوان « ملاحظات على الكتابات الحديثة » إستمرت حتى عام ١٧٤٣ وعلى صفحاتها نصب نفسه مدافعا عن المضائل وعن العفة بصفة خاصة . وهاجم ، في زراية واحتقار ، كل مظاهر إنحلال الخلق أو الخروج على التقاليد السليمة ، باغة الأدب في ذلك العصر . ومات الد إعداء فولتير . ولما مات في ١٧٤٥ أوصى بزاية الجهاد لصديقه فريرون .

كان أيلي كاترين فريرون أقدر خصوم الفلاسفة وأشجعهم وأغزرهم علما وثقافة . وكان عالما بحاثة إلى حد أنه كتب « تاريخ ماري ستيوارت » (١٧٤٢) وسبعة مجلدات في « تاريخ الامبراطورية الألمانية » (١٧٧١) . كما كان شاعرا إلى حد أنه نظم قصيدة « عن معركة فونتنوي » (١٧٤٥) ولأبد أن فولتير رأى فيها منافسة وقحة لقصيدته باعتباره المؤرخ الملكي . وفي ١٧٤٥

أصدر نشرة دورية تحت عنوان : « رسائل عن بعض كتاب هذا العصر » وتناول فيها فولتير بالنقد والتجريح أكثر من مرة . وقضى فريرون سني فقره سائقا لعربة تجرها أربعة جياذ . . وزج به في سجن الباستيل ذات مرة لمدة ستة أسابيع لنقده راهبا من ذوى النفوذ . ولكنه حارب لمدة ثلاثين عاماً معركة الجبارة من الماضى . وإستاء استياءً واضحاً من فولتير لأنه نصح فرديريك بالعدول عن استخدامه مراسلا له في باريس^(٢٣) . وفي ١٧٥٤ أصدر مجلة جديدة تحت أسم « السنة الأدبية » التي حررها وكتب معظمها ، ونشرها مرة كل عشرة أيام حتى ١٧٧٤ .

وأعجب فريرون بتمسك بوسويه بالدين وبالطرق الفخمة والأسلوب الفخم في القرن السابع عشر ، وأحس بأن فهم الفلاسفة للتنظيم الاجتماعى ودعائم الفضيلة والأخلاق وركائز الإيمان فهم سطحي إلى حد معيب . « لم ينبج عصر مثل عصرنا هذا قط مثل هذا العدد الكبير من الكتاب المغوين مثيرى الفتن الذين يركزون قواهم في التهجم على مقام إله ، أنهم يسمون أنفسهم رسل الإنسانية ، دون أن يدركوا أنه لا يلائم أى مواطن وأنه يسىء إلى الجنس البشرى أبغ اساءة أن يسلبوهم الآمال الوحيدة التي تهيء لهم بعض التخفيف من متاعب الحياة . أنهم لا يدركون أنهم يقبلون النظام الاجتماعى ، ويحرضون الفقراء على الأغنياء والضعفاء على الأقوياء ، ويضعون الأسلحة في يد ملايين الناس الذين منعهم حتى الآن الوازع الأخلاقى والدينى من اللجؤ إلى العنف ، قدر ما يمنعهم القانون »^(٢٤) .

وتنبأ فريرون بأن هذا الهجوم على الدين سوف يقوض أركان الدولة ، واستبق بجيل واحد تحذيرات ادموندبيرك : « أليس التعصب للكفر وهدم الدين أشد سخفا وخطرا من التعصب للخرافة ؟ أبدا بالتسامح مع عقيدة آباءك . أنكم لا تتحدثون إلا عن التسامح ، ولكنكم ابعث الناس عن التسامح .. أنا لا أنتمى إلى عصابة الروح الجميلة ، ولا أنتمى إلى حزب الدين والفضيلة والشرف »^(٢٥) .

وكان فريرون ناقداً لاذعاً ، ولم يدخر وسعاً في تحطيم غرور الفلاسفة
الحساس وجرح كبريائهم . وسخر من شدة تعنتهم وتعصبهم لأرائهم ، ومن
مزاعم سيادة فولتير الأقطاعية باعتباره « كونت دي تورناي » . ولما ردوا
عليه فأسموه « وغدا متعصباً » ، أنتقم هو منهم فقال إن ديدرو منافق وإن
جريم متماق الوجهاء الأجانب ، وأطلق على جماعة الكفار بأسرها اسم
عصبة « الاوغاد المحتملين والوضعاء الحمقى » (٢٦) . وأتهم الموسوعيين بسرقة
الرسوم الأيضاحية من كتاب Reaumur عن « النمل » . وأنكروا هم هذه
التهمة وأيدت أكاديمية العلوم هذا الإنكار ، ولكن الحقائق أيدت الاتهام
فيما بعد (٢٧) . ولم يتصرف فريرون تصرفاً حسناً في « عودة إلى كالاس »
إنه ذهب إلى أن الدولة أثبتت أن كالاس مذنب . وكتب أن فولتير لم يكن
مدفوعاً في دفاعه عن كالاس بأى شعور إنسانى قدر رغبته في لفت أنظار
الرأى العام إلى وجوده هو - أى فولتير ، وفي أن يجعل الناس يتحدثون
عنه (٢٨) . وأحبت الأنسة كليرون ، وهى كاتبة مسرحية كبيرة ، فولتير
وزارته ، ودأب فريرون على إمتداح منافستها ، وأبدى بعض ملاحظات
على الحياة الخاصة غير الأخلاقية لمثلة بعينها . واستاء الممثلون من مزاعمه
باعتبارها تدخلا غير كريم في أمورهم الشخصية . وحرص دوق ريشيليو ،
وهو الذى يغتفر الزنى ، لويس الخامس عشر على إعادة فريرون إلى الباستيل
ثانية ولكن الملكة حصصت على عفو عنه « من أجل تقواه وبلائه الحسن في
مناهضة الفلاسفة » (٢٩) . ولما قبض ترجو صديق الفلاسفة على زمام الأمور
سحب رخصة مجلة السنة الأدبية (١٧٧٤) وتعزى فريرون بتناول الطعام
الجيد ، ومات بسبب أكلة شبيهة ، وطلبت أرمانه إلى فولتير أن يتبنى أبنته ،
ولكن فولتير رأى أن هذا اسراف في الشهامة .

وبقدر ما أساءت مجلدات فريرون الثلاثون إلى الفلاسفة ، أساءت لفظه
واحدة هى اللفظة الأخيرة . في عنوان كتاب هجاء جاكوب نقولا مور
« مذكرات جديدة لايضاح تاريخ الكاكواك Cacouacs » . ويقول مور

إن هؤلاء « الكاكوكواك » جنس يكاد يكون من الحيوانات البشرية تحمل تحت السننها أكياسا من السم ، فإذا تكلمت إمتزج السم بالكلمات ولوث كل الهواء المحيط بها . واقتبس المؤلف الحاذق مقتطفات من ديدرو ، ودالمير وفولتير وروسو ، وحاول أن يبرهن على أن هؤلاء الرجال كانوا حقا يسمون أنفاس الحياة ، وأتهمهم بأنهم يرتكبون السيئات والشرور « لمجرد حبهم للشر وفرحهم بارتكابه »^(٣٠) وسماهم ملحدين ، فوضويين ، لاخلق لهم ، أنانيين . ولكن لفظة الكاكوكواك هي التي آلمتهم أشد الأيلام . إن هذا اللفظ أوحى بتنافر النغمات في صوت البط ، وتهريج الثرثارين المجانين ، وأحيانا (كما قصد بالكلمة) رائحة المراحيض . وكافح فولتير ليرد ، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يفند الرائحة ؟

وتشجع المحافظون وشددوا من ضرباتهم . وفي ١٧٥٧ كسبوا جنديا جديدا طموحا نشيطا . فإن شارل باليسودي مونتيني كان قد زار فولتير في لي دليس (١٧٥٤) مع تقديم من تيرو على أنه « تلميذ صنعته مؤلفاتك »^(٣١) وبعد ذلك بعام واحد مثل في نانسي ملهارة (كوميديا) تنتقد روسو بشكل لطيف ، وفي باريس رعى وشجع الأميرة الشابة الورعة Robecq التي كانت على الأقل صديقة الدوق دي شوازيل . وكان ديدرو الخبير في سوء السلوك قد عاب عليها خلقها في مقدمة كتابه « الأبن الطبيعي » وربما نشر باليسو (١٧٥٧) ، استرضاء لها ، كتاب « رسائل صغيرة عن كبار الفلاسفة » انتقد فيه ديدرو بشدة ، ولكنه إمتدح فولتير . وفي ٢ مايو ١٧٦٠ قدم تحت رعاية الأنسة دي روبيك على المسرح الفرنسي الملهارة الرائعة في الموسم وأسمها « الفلاسفة » . وكانت هذه بالنسبة لملفشيوس وديدرو وروسو ما كانت مسرحية أرسطوفان « السحب » بالنسبة لسقراط قبل ذلك بنحو ٢١٨٣ عاما . صور فيها هلفشيوس في صورة الفيلسوف المتحذلق فالير Valere الذي يشرح حب الغير في الأنانية للسيدة المثقفة ذات الأهتمامات الأدبية والفكرية سيد اليز Cidalise . وعرف جمهور المتفرجين

لأول مرة أن هذه السيدة تمثل مدام جيوفرين التي كان صالونها يتردد عليه الفلاسفة وصور ديدرو وكأنه دور تيديوس . وفي الخادم كرسبين Crispin الذي كان يحبو على أربع عبر المسرح وهو يمضغ الخس ، رأى الباريسيون صورة ساخرة (كاريكاتورية) لجان جاك روسو الذي كان في ١٧٥٠ قد استنكر المدنية وأضفى صورة مثالية على « حالة الطبيعة » ومجدها . وكان هجاء جافا غير مصقول ، ولكنه مشروع . وأستمع به كل من شاهده ، اللهم إلا الضحايا الذين قصدت المسرحية السخرية منهم . وميلأت الأنسة دي روبك المسرح بأصدقائها وغيرهم من أتباعها ، وعدة أفراد من مختلف الرتب الكنسية . وأصرت الأميرة على الرغم من السل الذي كان يهدد حياتها ، على تشريف العرض الأول بجمالها المحموم . وفي نهاية المشهد الثاني دعى باليسو إلى مقصورتها ، وعانقته على مرأى من الناس ، ثم حملوها إلى دارها (٣٢) لأنها كانت تسعل دما . ومثلت مسرحية الفلاسفة أربع عشرة مرة في تسعة وعشرين يوما .

وفي الوقت نفسه أنضم إلى الحملة على الكفار شخصية كبرى . فإن جان جاك لي فرانك مركيز دي بومبينان ، أحد حكام الإقليم ، كتب قصائد وروايات ممتازة إلى حد فاز معه في الانتخابات للأكاديمية الفرنسية . وفي الخطاب الذي ألقاه بمناسبة قبوله عضوا فيها ، قال جان مستنكرا : « هذه الفلسفة المضللة الخداعة التي تقول عن نفسها إنها لسان حال الحق ، وماهى إلا أداة للافتراء وتشويه السمعة ، إنها تبجح بالاعتدال والتواضع ، ولكن تفتنخ أوداجها زهوا وكبرياء . أن أتباعها الذين يتجرأون ويتعالون ويتهبون عجباً بأقلامهم يرتعدون فرقا في حطة في حياتهم ، وليس ثمة شيء يقيني في مبادئهم ، وليس ثمة غناء في أخلاقهم . ولا قاعدة للحاضر ولا هدف للمستقبل » (٣٣) .

وإمتدح لويس الخامس عشر هذا الخطاب . وسخر منه فولتير في نشرة من سبع صفحات لا تحمل أسم الكاتب ، عنوانها « عندما » لأن كل فقرة

فيها بدأت بكلمة « عندما » وعلى سبيل المثال . « عندما يحظى إنسان بشرف الأستقبال في جمعية كريمة من رجال الأدب . فليس من الضروري أن يكون خطاب الأستقبال هجاء لرجال الأدب ، لأن في هذا اساءة للجمعية وللجمهور . وعندما لا يكاد الإنسان يكون أديبا إلا يشق النفس ، ولا يكون على الأقل فيلسوفا ، فلا يجمل به أن يقول إن أدب امتنا زائف وفلسفتها عقيمة . . . »

وهكذا في أسلوب غير رائع . ولكن موريليه أتبع هذه النشرة بنشرة أخرى كبيرة تكرر فيها لفظ « إذا » وسرعان ما صدرت بعد ذلك نشرة أمثلات بلفظة « لماذا » ثم أصدر فولتير بعد ذلك نشرات متوالية زاخرة بالألفاظ : « من ، الذي ، نعم ، لا لماذا » ، وهرب بومبينان من هذه العاصفة إلى بلدته مونتويان ، ولم يظهر قط في الأكاديمية ثانية . ولكنه عاد إلى الصراع في ١٧٧٢ بكتاب اسمه « الدين يثار من الشكوكية بالشكوكية نفسها » وبسط وجهة نظره في أن المذهب المادى (المادية) لم يترك أى وازع للأخلاق والفضيلة ، وإذا لم يكن هناك إله فكل شىء جائز أو مرنخص به ، وكل ما نحتاجه هو أن نتملص من الشرطة . وتساءل المركيز : إذا لم يكن هناك إله فكيف تقنع الناس بأن يرضوا بوضع التبعية والخضوع الذى وضعهم الجمهورية فيه (٣٤) ؟

وقال الكاهن جاليانى ، الذى جاء من نابلى إلى باريس ١٧٦١ ، وتألق في الصالونات لمدة ثمانى سنوات ، للفلاسفة - الذين أحبوه - إن دعوة بعضهم إلى « اتباع الطبيعة » نصيحة مجنونة تهبط بالإنسان المتحضر إلى الوحشية والهمجية (٣٥) وإن شواهد التدبير الألهى المقصود فى الكون بارزة جلية (٣٦) وإن التشكك أدى إلى الفراغ العقلى واليأس الروحى :

« يسبب تنوير أنفسنا وجدنا فراغا أكثر مما وجدنا أمتلاء . . . وهذا الفراغ الذى ألح على نفوسنا وعلى خيالنا هو السبب الحقيقى فى كآبتنا (٣٧) .. وبعد كل ما قيل وما عمل فالتشكك هو أعظم محاولة تبذلها روح الإنسان

ضد غرائزه وفطرته وأذواقه . . . إن الناس في حاجة إلى التيقن . . .
أن الغالبية من الناس وبخاصة النساء (وخیالهن ضعف خیالنا) لا يمكن أن
يكونوا « لا أدريين » ، وإن هؤلاء القادرين على اعتناق مذهب اللاادرية
(الذين يعتقدون أن وجود الله وطبيعته وأصل السكون أمور لا سبيل إلى
معرفة) ، لا يستطيعون إن يبقوا على مذهبهم إلا بسمو شباب نفوسهم
وقوتها ، فإذا هرمت النفس وولى شبابها يعود بعض الإيمان إلى الظهور
ثانية (٣٨) . . . إن اللاادرية يأس له ما يبرره « (٣٩) .

و ضد جالياني اللامع ، وبرجيه العالم الفقيه وبرتييه الدمث ، وفريرون
المجد المسكافح وبومينان النبيل ذى اللقب ، وباليسو المرهق ، ومورو
الثرثار ، استخدم الفلاسفة ضد هؤلاء جميعا كل أسلحة الحرب الفكرية ،
من العقل والسخرية إلى الرقابة والقدح والذم . وتخلى فولتير عن هدوئه
وغامر بأمنه وطمأنينته ليرد في شيء من الدعاية أكثر منه بالحاجة والجدل
غالبا ، على كل من يهاجم الفلاسفة والعقل ، فكتب إلى ديدرو « أرسل إلى
إسماء هؤلاء الرفاق التعساء ، وسأعاملهم بما يستحقون » (٤٠) .

وكان من الصعب التعرض لمورو لأنه كان أمين المكتبة ، وكان مؤرخ
المللكة . وكان من الممكن التشهير ببومينان بالتفاصيل الصغيرة ، والنيل
من بالبسو بالتورية والتلاعب بالألفاظ ، وهكذا كتب مارمونتيل قطعة من
المتعذر ترجمتها « هذا الرجل كان اسمه ذات يوم بالى ، وفي البداية أسموه
بالى الغبى ، ثم بالى المنحط وبالى الأحمق ، وبالى العقيم وبالى البارد .
وتويفا لهذا التقريع المطول العنيف ونختاما لهذه المقطوعة الهجائية ، جاءت
الكلمة المناسبة على الفور . فأسموه بالى المغفل ، وهبوطا إلى مستواك
بجب علينا ، أنا واللفظة أن نمزح مرحا صاخبا ، تأمل وفكر إذا استطعت
أن تستخدم تلك الآلة ولكن لا تكتب ، بل اقرأ « أيها الأحمق » .

وأجل ديدرو الانتقام حتى يسرد فجور بالبسو وفسقه في كتابه « أين
أخى رامر » (٤١) وكاد ألا يكرن جديرا بفيلسوف ، ولسكنه تورع عن

نشرة ، ولم يدفع به إلى المطبعة الفرنسية إلا بعد وفاة فريسته أو غريمه .
على أن موريليه أخرج على الفور كتابا لا يهزأ فيه من باليسو وحده بل
كذلك من « حاميته » الأنسة دي روبيك - وإستصدر أحد إصدقائه في
البلاط الملكي أمرا بإيداع موريليه سجن الباستيل (١١ يونيو ١٧٦٠) وحصل
روسو على أمر بإطلاق سراحه ، ولكنه تقطع علاقته بالفلاسفة منذ ذلك
الوقت . ولطاع باليسو إنتصاره بالأنغماس في اللهو والشراب . وفي
١٧٧٨ إنحاز إلى جانب أنصار فولتير ، وانضم ثانية إلى الفلاسفة .

ووقعت أشد ضرباتهم على رأس فريرون . ووصفه ديدرو في ابن أخي
رامو^(٤٢) بأنه « واحد من جماعة الأدباء المأجورين المبتدلين الذين عاشوا
على مائدة الثرى (المليونير) برتان » . ونخصص فولتير إحدى مقطوعاته
الساخرة لفريرون ، حيث يقول « بالأمس القريب ، في أحد الأودية لدغ
ثعبان جون فريرون ، فماذا نظن قد حدث آنذاك ؟ لقد مات الثعبان .

ومن أمثلة البذاءة التي أساءت إلى سمعة فولتير والقرن الثامن عشر
وصفه لفريرون بأنه « الدودة التي خرجت من إست ديفونتين »^(٤٣)
ولكن الهجوم الأكبر ورد في رواية فولتير « المرأة الاسكتلندية » التي
بدأ تمثيلها على المسرح الفرنسي في ٢٦ يوليو ١٧٦٠ حيث كانت محاكاة
ساخرة لرواية باليسو « الفلاسفة » مع مبالغات واضحة في أنها نسبت
إلى ضحاياها مسئولية هزائم الجيوش الفرنسية في الحروب وانهايار مالية
الدولة . وصور فريرون على أنه كاتب مأجور مبتدل تافه في شارع جرب
Grub street (شارع اشتهر بهذا الأسم سابقا) ، جاء بالرجس والعار في كل
فقرة كتبها نظير بستانول واحد (عملة أسبانية أوروبية) . ومن بين النعوت التي
أطلقت عليه في رواية فولتير : وغد ، ضفدع الطين (شخص تافه) ،
كلب ، جاسوس ، ساحلية ، ثعبان ، موطن النجس والقذارة^(٤٤) . واتباع
فولتير نفس العادة المألوفة فملا المسرح بأصدقائه أو « بالأخوة » ونافست

هذه الرواية رواية باليسو في شعبيها واقبال الجمهور على مشاهدتها ،
ومثلت ست عشرة مرة في خمسة أسابيع . وخرج فريزون من العاصفة
سالماً بحضوره العرض الأول مع زوجته الجميلة ، وواضح أنه كان أول
المصنفين . وتبين فولتير مزاج غريمه . فأذا سأل زائر عن يؤخذ رأيه في
قيمة الكتب الجديدة أو مزاياها ، أجاب فولتير بقوله « أرجعوا إلى هذا
الوغد فريرون . . . إنه الرجل الوحيد الذي له ذوق . إنى مضطر إلى
الاعتراف بهذا على الرغم من أنني لا أحبه » (٤٥) .

٣ - سقوط اليسوعيين

كشف الأنهار السريع « لجمعية يسوع » عن روح العصر ومزاجه ،
ولو أن هذا السقوط نتيجة لتصرف برلمان باريس أكثر منه نتيجة لعمل
الفلاسفة . أن مؤسسها إطلق عليها اسم « عصابة (شركة) يسوع » وأقرها
البابا بول الثالث ١٥٤٠ تحت اسم مجتمع يسوع - أي هيئة دينية تتبع
قاعدة محددة ، تعيش على الصدقات . وقد أصبح هؤلاء « اليسوعيين »
كما سماهم النقاد - على مدى قرن من الزمان أقوى جماعة من رجال الدين
في الكنيسة الكاثوليكية . وما وافى عام ١٥٧٥ حتى كانوا قد أسسوا في فرنسا
وحدها اثنتي عشر كلية ، وسرعان ما سيطروا على تعليم الشباب في فرنسا .
ولمدة مائتي عام اختار ملوك فرنسا كهنة إعترا فهم من بينهم ، وحذا سائر
الحكام الكاثوليك حذوهم . وبهذه الوسيلة وغيرها من الوسائل بات هؤلاء
اليسوعيين أو « جماعة يسوع » أبلغ الأثر في تاريخ أوروبا بأسرها .

ومنذ بداية عهد اليسوعيين في باريس تقريباً كان البرلمان والسوربون
يقاومانهم . وفي ١٥٩٤ اتهمهم برلمان باريس بأنهم كانوا وراء محاولة جان
شاتيل الاعتداء على حياة هنري الرابع . وفي ١٦١٠ اتهمهم البرلمان
بتحريض رافياك على قتل الملك ، وأيد البرلمان هذه الاتهامات بالإشارة إلى
بحث اليسوعي الأسباني ماريانا الذي دافع فيه عن مشروعية قتل الملوك في

ظروف معينة . ولكن جماعة يسوع إزدادت عدداً وقوة وسلطاناً وسيطرت على سياسات لويس الرابع عشر الدينية ، وأدت به إلى مهاجمة الجانسينيين في بورت رويال ، على أنهم كلفنيون تحت شعار أنهم كاثوليك ، ولا تزال الإقلية المتعلمة تذكر « الرسائل الإقليمية » التي كتبها يسكال ١٦٥٦ ، ومع ذلك فإنه في ١٧٤٩ كانت جماعة يسوع تضم ٣٣٥٠ عضواً في فرنسا من بينهم ١٧٦٣ كاهناً . وبرزوا بين رجال الدين في فرنسا بوصفهم أحسن العلماء والباحثين وأبرع اللاهوتيين وأفصح الوعاظ ، وأتى المدافعون عن الكنيسة ، وأنشطهم وأنجحهم ، وأسهموا في كثير من العلوم ، وأثروا في تطوير الفنون ، وكانوا باجماع الآراء أفضل المعلمين في أوروبا . وكانوا يتميزون بصرامة أخلاقهم ، ومع ذلك لجأوا إلى كل ألوان التحايل للتخفيف من متطلبات الاخلاق المسيحية عند الرجل العادي ، وحتى مع هذا لم يتغاضوا قط عن فسق النبلاء والملوك وفجورهم ، وبفضل إعدادهم أو تربيتهم الشاقة ومثابرتهم الصابرة ، جعلوا من أنفسهم قوة تسيطر على سياسات الملوك وعقول الناس . وبدا في بعض الأحيان أن أوروبا بأسرها قد تدعن لصلابة ارادتهم المتحدة المتميزة بالنظام والانضباط .

أن قوة اليسوعيين هي تقريباً التي قضت عليهم . وبدا واضحاً كل الوضوح لدى الملوك أن تأييد اليسوعيين لسلطة البابا المطلقة في مسائل الإيمان والاخلاق وغيرها ، إذا لم يوضع له حد سيجعل من كل الحكام المدنيين أتباعاً للبابوات ، ويعيد سلطان رومه الامبراطورية . أنهم ولو أنهم كانوا أقرب الجماعات إلى آذان الملوك ، دافعوا عن حق الشعب في خلع الملك . أنهم ولو أنهم كانوا متحررين نسبياً في اللاهوت والاخلاق ، وسعوا إلى التوفيق بين العلم والكنيسة ، فأنهم شجعوا ورع الناس بتأييدهم دعوى مرجريت ماري الاكوك بأن المسيح كشف لها عن « قلبه المقدس » الذي يتعرق حباً للبشر . إنهم أنشأوا وبنوا عقول ديكارت ومولير وفولتير

وديدرو ، مجرد أن يروا هؤلاء الرجال اللامعين ينقلبون عليهم وعلى نظام التعليم اليسوعي .

وأهم منهج المدارس اليسوعية بتعلقه الشديد وحرصه البالغ على اللغة اللاتينية ، إلى حد أنه دوق نمو المعرفة باستبعاد كل شيء اللهم إلا الأفكار التقليدية . إنهم اعتمدوا أكثر مما ينبغي على الذاكرة ، وعلى الطاعة العمياء السلبية . ومن ثم فإن قيمة الدراسة فقدت كثيراً بسبب حاجة العصر إلى قدر أكبر من الاستفادة بالعلوم ، وإلى نظرة أكثر واقعية إلى الحياة البشرية . وعلى ذلك فإن دامبير في مقاله عن « السكلية » في الموسوعة رثى للسنوات الست التي قضاها الطلبة في المدارس اليسوعية في دراسة لغة ميتة ، وأوصى بمزيد من الاهتمام باللغتين الانجليزية والاطالية والتاريخ والعلوم والفلسفة الحديثة . وأهاب بالحكومة أن تسيطر على التعليم ، وتدخّل منهجاً جديداً للدراسة في مدارس جديدة . وفي ١٧٦٢ نشر روسو كتابه « إميل » أعلن فيه ثورة على التعليم .

ومهما يكن من أمر فإن الفلاسفة كانوا عاملاً أقل شأنًا في سقوط اليسوعيين في فرنسا . إن نوعاً من الهدنة المتبادلة خيم على العداء المتبادل ، ذلك أن الكفار احترموا علم اليسوعيين وخلقهم ، وهؤلاء من جانبهم كانوا يأملون بالأناة والصبر في معالجة الأمور في أن يعيدوا هؤلاء المتشككين الحطائين إلى حظيرة الدين القويم . ووجد فولتير أنه من العسير عليه أن يشن الحرب على معلميه السابقين . وكان قد أرسل روايته « هنرياد » إلى الأب بوري راجيا أياه أن يصحح ما قد يكون فيها من فقرات تسمى إلى الدين^(٤٦) . وفي كتابه « معبد الذوق » كان قد إمتدح في اليسوعيين تقديراً لهم لقيمة الأدب وكثرة استخدامهم للرياضيات في تعليم الشباب . وتجاوبت معه صحيفة تريفو بنشر تقرّظ لرواية هنرياد ، وكتّابي « شارل الثاني » و « فلسفة نيوتن » . وانتهى هذا الاتفاق شبه الودي حين لحق فولتير بفردريك في بوتسدام ، فتخلّى عنه زعماء اليسوعيين عند ذلك باعتباره نفساً ضائعة . ولكن

في أواخر ١٧٥٧ حاول بعضهم التوفيق بين فولتير وجماعة يسوع (٤٧). وفي فرني (في ١٧٥٨ وما بعدها) احتفظ فولتير بعلاقات ودية مع اليسوعيين المحليين واستمتع نفر منهم بكرم وفادته . وكان في نفس الوقت قد هاجم الكنيسة في مائة صحيفة في كتابه « رسالة في العادات والاعراف » . كما كان يكتب مقالات ضد المسيحية للقاموس الفلسفي . وعندما سمع بنياً مهاجمة رئيس الورداء كارفالو لليسوعيين في البرتغال (١٧٥٧) واحراق مالا جريدا اليسوعي (١٧٦٤) شجب اتهامات كارفالو بأنها غير عادلة وإعدامه بأنه قسوة غاشمة (٤٨) . ولكنه طوال تلك السنوات كان هو نفسه في حرب مع الكنيسة ، وكانت كتابات « أخوته » ديلورو ودالمير وموريليه تسهم في اضعاف اليسوعيين في فرنسا .

وربما أسهمت المحافل الماسونية ، المخصصة بصفة عامة للمذهب البيوبية في عملية تقويض أركان اليسوعيين وأضعافهم . ولكن أقوى التأثيرات في المأساة كانت شخصية متعلقة بصراعات طبقية . ولم تستطع مدام دي بمبادور أن تنسى أن اليسوعيين قاوموا كل خطوة في سبيل تسنمها مراق العظمة والسلطان ، وأنكروا الغفران للملك مادام يحتفظ بها ، ورفضوا أن ينظروا بعين الجدل إلى عودتها المفاجئة إلى التقوى والتمسك بأهداب الدين . وأعلن الكاردينال برنيس وكان لأمد طريل ذا حظوة لدى المركيزة ، أن قمع حركة اليسوعيين في فرنسا يرجع أساساً إلى إمتناع كهنة الاعتراف اليسوعيين عن منح الغفران لمدام دي بمبادور على الرغم من توكيدها بأن علاقاتها بلويس الخامس عشر لم تعد جسدية (٤٩) . وردد الملك صدى استيائها : لماذا كان هؤلاء الكهنة متساهلين مع الآخرين ، قساة متشددون مع المرأة التي أضاعت جوانب حياته المرهقة الموحشة ؟ لماذا كانت تزداد ثروتهم المشتركة على حين كان هو يكافح من أجل الحصول على الإعتمادات اللازمة لجيشه وبحريته في حرب مشنومة تنذر بكارثة ، ومن أجل ملابس عشيقته وأجور تدريبها وإعدادها في « منتدى

الظباء» وكان داميين قد حاول قتل الملك ، ولم يكن لليسوعيين علاقة ظاهرة بهذه المحلولة ولكن كان لداميين كاهن إعراف يسوعى . ألم يدافع أحد اليسوعيين المتوفين عن فكرة قتل المارك ؟ وبدأ الملك يصغى إلى شوازيل وإلى بعض شبه إنضار فولتير في وزارته ، ممن قالوا بأن الوقت قد حان لتخليص الدولة من ربة وصاية الكنيسة ، وإقامة نظام إجتماعى إجلاقى مستقل عن رجال الدين الزراعيين إلى تعويق إنتشار المعرفة ، وعن لاهوت العصور الوسطى . وإذا كانت دولة البرتغال الصغيرة الغارقة في الخرافة قد تجامرت على طرد اليسوعيين فلم لا تقدم فرنسا المستنيرة على مثل هذا ؟

وتأثر اليسوعيون بهذه العداوات المختلفة وأشدت الارتباب في أنهم ربطوا بين فرنسا والنمسا في حرب السنين السبع ، ومن ثم فأنهم تعرضوا لسكراهية مفاجئة بشكل غريب . وبعد هزيمة الفرنسيين على يد فردريك في روسباخ ، وبعد أن وصلت أقدار فرنسا إلى الحضيض وأصبح منظر الجنود المقعدين المشلولين مألوفاً في باريس ، بات اليسوعيين هدفاً للكنكات والشائعات والأفتراءات المشوهة للسمعة حتى إلى حد الاتهام باللواط^(٥١) . واتهموا بالأنهماك في متاع الدنيا وباهرطقة وبجمع الثروة وبأنهم عملاء لدولة أجنبية . وانتقد كثير من رجال الدين غير المنتسبين إلى طوائف لاهوتهم بأنه متحرر أكثر مما ينبغى ، وإفتاءهم في قضايا الضمير والسلوك والأخلاق بأنه مفسدة للأخلاق ، وسياستهم بأنها تقوم على إرتماء فرنسا في أحضان رومه . وفي ١٧٥٩ كتب دالمير إلى فولتير « إن الأخ برتديه والمواطنين معه لايجرؤون على الظهور في الشوارع في هذه الأيام خشية أن يلقى الشعب بالبرتغال البرتغالى على رؤوسهم »^(٥١)

وكان برلمان باريس أعظم القوى التى إنقبت على اليسوعيين عداً ، وكانت هذه الجماعة تتألف من محامين وقضاة يتدثرون في أردية كنيسية رهيبة مثل الملابس الكهنوتية ، وينتمون إلى طبقة « نبلاء الرداء » .

إن هذه الأرستقراطية الثانية المنظمة تنظيمًا جيدًا، الذرية اللسان كانت ترقى مدارج السلطة والسطوة بسرعة ، وكانت متلهفة على تحدى سلطان رجال الدين . وفوق هذا كانت غالبية برلمان باريس من الجانسنيين . وعلى الرغم من كل القمع عاناه الجانسنيون فإن هذا المذهب المتشدد ، وهو نتاج تشدد القديس بولص في مسيحية المسيح وهى أيسر وأخف ، إجتذب قطاعات كبيرة من الطبقة الوسطى في فرنسا ، وعلى الأخص تلك العقول القانونية التى أحست منطقته ، ورأت فيه وقفة قوية ضد اليسوعيين . واتضح الآن بما لا يدع مجالاً للشك أن اليسوعيين هم الذين ألحوا على لويس الرابع عشر لتعقب الجانسنيين إلى حد تدمير بورت رويال تدميراً تاماً ، وإكراههم الشديد على قبول المرسوم البابوى البغيض الذى جعل من الجانسنية هرطقة أنسكى من الاتحاد . فهل تحين الفرصة للرد على هذا الأيذاء بمثله والانتقام لمثل هذا الأضطهاد !

وهيأ اليسوعيون لبرلمان باريس هذه الفرصة . إنهم لعدة أجيال مضت قد إشتغلوا بالتجارة والصناعة ، وسيلة لتمويل معاهدهم اللاهوتية وكلياتهم وبعثاتهم التبشيرية وسياستهم . إنهم في رومه احتكروا كثيراً من نواحي الإنتاج والحرف والصناعات . وفي آنجز بفرنسا أسسوا مصنعاً لتكرير السكر^(٥٢) ، واحتفظوا بمراكز تجارية في كثير من الأراضى الأجنبية مثل جوا . وكانوا من أغنى المقاولين في مستعمرات إسبانياً والبرتغال في أمريكا^(٥٣) . وجارت المشروعات الخاصة بالشكوى من هذه المنافسة . حتى أن الكاثوليك الأفاضل تعجبوا كيف أن طائفة نذرت نفسها للتقشف مثل اليسوعيين تجمع مثل هذه الثروة . وكان من أنشط رجال الأعمال عندهم الأب إنطوان دى لافالت Valette الرئيس الأعلى لليسوعيين في جزر الأنتيل الذى أدار باسم الجماعة مزارع وأسعة في جزر الهند الغربية واستخدم آلافاً من المواطنين السود^(٥٤) وصدر السكر والبن إلى أوروبا . وفي ١٧٥٥ إقرض مبالغ ضخمة من مصارف مرسلينا ، ولسداد هذا القرض

أرسل فرنسا سفنا محملة بالبضائع التي تقدر قيمتها بمليوني فرنك (• ملايين من الدولارات) ، ولكن البوارج الانجليزية استولت عليها سنة ١٧٥٥ في مقدمات حرب السنين السبع ، وأملاني تعويض هذه الخسائر اقترضت فالت مبالغ أكبر ، ولكنه أخفق وأعلن افلاسه ، وهو مدين بمبلغ ٢,٤٠٠,٠٠٠ فرنك . وطالب الدائنون بالدفع ، وطلبوا إلى جماعة اليسوعيين الاعتراف بمسئولياتها عن ديون لا قالت . ورفض زعماء اليسوعيين زاعمين أنه تصرف بصفة فردية ، لأبسم الطائفة ، وأقام أصحاب المصارف دعوى على الجماعة فنصحهم الأب فرى Frey الحبير السياسي لها في فرنسا بعرض الأمر على البرلمان . وتم هذا في مارس ١٧٦١ ، وتعلق مصير الطائفة بأيدي أقوى أعدائها . وفي الوقت نفسه أرسل أحد اليسوعيين رسالة سرية إلى الملك يوصي فيها بطرد شوازيل من الوزارة بوصفه عدوا للجماعة والدين ، ودافع شوازيل عن نفسه بنجاح .

وانتهز البرلمان الفرصة ليقوم بفحص دستور الجماعة وقوانينها ومستنداتها التي تكشف عن تنظيم الجماعة وأنشطتها . وفي ٨ مايو أصدر حكما في مصلحة الشاكين ، وأمر الجماعة بتسوية كل ديون لا قالت . فشرع اليسوعيين في عمل بعض التسويات مع الدائنين الأصليين^(٥٥) . ولكن في ٨ يوليو قدم الراهب Terray إلى البرلمان تقريرا عن « المذهب الخلقى والعمل لجماعة اليسوعيين » . وعلى أساس هذا التقرير أصدر البرلمان في ٦ أغسطس قراراتين قضى أحدهما بأحراق عدد كبير من مطبوعات اليسوعيين في القرنين السابقين لأنها تعلم مبادئ « بغیضة تدعو إلى سفك الدماء » وتهدد أمن المواطنين والملوك ، كما حرم الانضمام إلى عضوية الجماعة بعد الآن في فرنسا . كما قضى بأنه حتى أول أبريل ١٧٦٢ ، يجب إغلاق كل مدارس اليسوعيين ، اللهم إلا تلك التي تحصل على ترخيص من البرلمان باستمرار الدراسة فيها . أما القرار الثاني فأباح تقديم الشكاوى ضد سوء استخدام السلطة في الجماعة أو بواسطتها . وفي ٢٩ أغسطس أوقف الملك تنفيذ هذين القرارين ، ووافق

البرلمان على تعطيلهما مؤقتاً حتى أول إبريل . وحاول الملك المتزعج الوصول إلى تسوية وسط . وفي يناير ١٧٦٢ أرسل إلى كليمنت الثالث عشر وإلى لورنزو ريتشي رئيس اليسوعيين اقتراحاً بأن تفوض منذ الآن فصاعد كل سلطاته في فرنسا إلى خمسة من القساوسة الإقليميين يتسمون اليمين على طاعة القانون الفرنسي ، ومواد قانون ١٦٨٢ التي أحلت الكنيسة الفرنسية في الواقع من الخضوع للبابا . وفوق ذلك يجب أن تكون المدارس اليسوعية خاضعة لتفتيش البرلمانات . ولكن البابا وريتشي رفضا الاقتراح في شيء من التحدي « فليبق اليسوعيون كما هم أو لا يبقون مطلقاً »^(٥٦) . ولمصلحة جماعة اليسوعيين أهاب كليمنت برجال الدين الفرنسيين مباشرة . وفي هذا خرق لقانون الفرنسي . ورفض رجال الدين الفرنسيون رسالة البابا وأحيلت إلى الملك الذي أعادها إلى البابا .

ودخلت البرلمانات الإقليمية الآن حلبة النزاع وأضافت بعض التتارير التي تلقها مزيداً من الاتهامات الموجهة إلى اليسوعيين . وأثر برلمان رن Rennes في بريتانى بالتقرير الذي قدمه النائب العام لويس رينيه دي لاشالوتيه في ١٧٦١ - ١٧٦٢ عن « نظام اليسوعيين » الذي اتهم فيه الجماعة بالهرطقة والوثنية والأعمال غير المشروعة والدعوة إلى قتل الملوك ، وأكد أنه لزام على كل يسوعي أن يقسم يمين الطاعة المطلقة للبابا ورئيس الطائفة الذي كان يقيم في رومه . وأنه بناء على ذلك تكون الجماعة بمقتضى دستورها خطراً يهدد فرنسا ومليكها ، ومن ثم ألح التقرير على أن يكون تعليم الأطفال حقاً مطلقاً للدولة لامراء فيه . وفي ١٥ فبراير ١٧٦٢ أمر برلمان روان كل اليسوعيين في نورماندى بإخلاء دورهم وكلياتهم وعزل كل المديرين الأجانب ، وقبول القانون الفرنسي . وصدرت قرارات مماثلة من البرلمانات في رن ، اكس أن بروفانس ، بو ، برينان ، تولوز ، وبوردو . وفي أول إبريل أمر برلمان باريس بتنفيذ قراراته ونقل إدارة المدارس اليسوعية في دائرة اختصاصه إلى مديرين آخرين .

وحاول رجال الدين الذين لا ينتمون إلى طوائف على الرغم من أنهم من الناحية التقليدية يحقدون على اليسوعيين ، نقول حاولوا إنقاذهم ، ووجهت جمعية من الأساقفة الفرنسيين في أول مايو نداء إلى الملك من أجل هذه الطائفة : التي هي نظام مفيد للدولة وهم جماعة من المتمسكين بالدين الجديرين بالثناء ، لزهة أخلاقهم وشدة انضباطهم ، واتساع نطاق نشاطهم وعملهم وسعة إطلاعهم وعلمهم ، والخدمات التي لا تحصى التي قدموها للكنيسة إن كل شيء يا صاحب الجلالة يناشدك العطف على اليسوعيين . إن الدين يرى فيهم المدافعين عنه ، وترى فيهم الكنيسة خدامها ، كما يرى فيهم المسيحيون حراساً على ضمائرهم ، إن عدداً كبيراً ممن كانوا تلاميذهم يتشفعون لديك من أجل معلمهم القدامى . وإن كل شباب مملكتك يدعون ويصلون من أجل أولئك اليسوعيين الذين يشكلون عقولهم وقلوبهم . نرجو يا مولاي أن تعبر أذنأ صاغية إلى توسلاتنا التي أجمعنا على تقديمها إلى جلالتم (٥٧) .

وأضافت الملكة وبناتها والدوفين وغيرهم من حزب المتدينين في الحاشية تضرعاتهم من أجل اليسوعيين . ولكن شوازيل وبمبادور نصحا الملك آنذاك قطعاً بالأذعان للبرلمان وإغلاق المدارس اليسوعية . وذكر لويس بأن عليه أن يفرض ضرائب جديدة ، وأن هذا يتطلب موافقة البرلمان وعلى حين كان الملك متردداً بين هذه النصائح المتضاربة ، اتخذ البرلمان خطوات حاسمة . وفي ٦ أغسطس ١٧٦٢ أعلن أن جماعة يسوع لا تلتزم مع قوانين فرنسا ، وأن الإيمان التي أقسمها الأعضاء ، طغت على ولائهم للملك ، وأن خضوع الجماعة لسلطة أجنبية جعل منها هيئة أجنبية داخل دولة مفروض أنها ذات سيادة . وبناء على ذلك أصدر البرلمان أمراً بحل الجماعة في فرنسا ، وبتخلي كل الجزويت في بحر ثمانية أيام عن كل ممتلكاتهم في فرنسا ، فأعلن أنها صودرت لحانب الملك .

وأخر الملك تنفيذ هذا القرار تنفيذاً كاملاً لمدة ثمانية شهور . ورفض

برلمانا بيزانسون ودواى الامتثال لهذه القرارات ، على حين أطال ثلاثة برلمانات ديجون وجرينوبل ومتر الحدل والمناقشة كسباً للوقت ، ولكن برلمان باريس أصر ، وأخيراً فى نوفمبر ١٧٦٤ أمر لويس بوقف نشاط جماعة اليسوعيين وقفاً تاماً فى فرنسا . وبلغت قيمة الممتلكات المصادرة نحو ٥٨ مليوناً من الفرنكات (٥٨) ، وربما ساءد هذا على موافقة الملك على حل هذه الطائفة ، وخصص معاش ضئيل لليسوعيين السابقين ، وسمح لهم بالبقاء فى فرنسا لبعض الوقت ، ولكن فى ١٧٦٧ قرر البرلمان وجوب مغادرة كل اليسوعيين السابقين أرض فرنسا ، وتبرأ قليل منهم من الطائفة وبقوا فى فرنسا .

وكان رحيلهم موافقاً للشبلاء والطبقة الوسطى والمثقفين ورجال الأدب والجانسينيين ، ولكن لم يرق فى أعين بقية الأهالى ، واستنكر كريستوف دى بومونت رئيس أساقفة باريس تصرفات البرلمان بشدة ، وعبرت مجموعة رجال الدين الفرنسيين (١٧٦٥) بالاجماع عن حزنها وأسفها لحل الجماعة ودعت إلى إعادتها . وأعلن البابا كليمنت الثالث عشر فى مرسومه الرسولى براءة اليسوعيين ، فأحرق المدعى العام المرسوم فى شوارع عدة مدن ، على أساس إن البابوات ليس لهم حق مشروع فى التدخل فى شئون فرنسا (٥٩) . ورحب الفلاسفة فى أول الأمر بطرد اليسوعيين باعتباره إنتصاراً مشجعاً للفكر الحر . وأورد دالمبير فى سرور تعليق جان أستروس العالم الباحث فى الأسفار المقدسة ، والذي قال فيه « إن الموسوعة ، لا الجانسينيين ، هى التى قضت على اليسوعيين (٦٠) . وزادت الآن بسرعة مطبوعات الفكر الحر . وفى عقد السنين التى تلت عملية الطرد ، قارب دى هولباخ ومعاونيه حد الإلحاد .

ومهما يكن من أمر فثمة تفكير ثان ، وهو أن الفلاسفة أدركوا أن الانتصار يرجع إليهم أقل مما يرجع إلى الجانسينيين والبرلمانات ، وأن الفكر الحر ترك ليواجه عدواً أشد تعصباً من اليسوعيين بكثير (٦١) . وعبر دالمبير فى كتابه « تاريخ القضاء على اليسوعيين » عن إبتهاج يسير بمصيرهم :

يقيفا إن العدد الأكبر منهم ، الذين لم يكن لهم صوت في إدارة الأمور كان يجدر ألا يتحملوا وزر أخطاء رؤسائهم ، إذا كان هذا التفريق بين هؤلاء جائزا من الوجهة العملية . وهناك آلاف من الأبرياء خلطنا مع الأسف بينهم وبين عشرين شخصا مذنبين إن القضاء على جماعة يسوع سيعود بأكبر النفع على العقل ، شريطة ألا يرقى تعصب الجانسنيين إلى مستوى تعصب اليسوعيين .

وإذا كان لنا أن نختار بين هاتين الطائفتين ، فإننا نؤثر جماعة يسوع التي هي أقل طغيانا وجورا . فإن الجزويت الذين يخدمون الناس ويتكيفون معهم ، شريطة ألا يعلن المرء عداؤه لهم أجازوا للمرء أن يفكر كيفما شاء . أما الجانسنيون فإنهم يفرضون على كل الناس أن يفكروا كما يفكرون هم . وإذا قدر لهم أن يسودوا لفرضوا على الناس تحكما شديدا في الأذهان والكلام والاخلاق^(٦٢) .

وكأنما أراد برلمان باريس الذي سيطر عليه الجانسنيون أن يضرب أمثلة توضح وجهة النظر هذه فأصدر في نفس عام ١٧٦٢ الذي أمر فيه بحل جماعة يسوع أمرا باحراق كتاب روسو « أميل القرن الثامن عشر » ، وهو كتاب لا يتعارض مع الدين نسبيا . وفي تلك السنة أعدم برلمان تولوز الذي تحكم فيه الجانسنيون كذلك ، جان كالاس ، وأحرق برلمان باريس في ١٧٦٥ قاموس فولتير الفلسفي . وبعد ذلك بعام وأحد ثبت حكم التعذيب والإعدام الصادر على الشاب شيفالييه دي لا بار من محكمة آيفيل .

وفي ٢٥ سبتمبر ١٧٦٢ كان دالمبير قد كتب إلى فولتير : « هل تعلم ماذا سمعت عنك بالأمس ؟ سمعت أنك بدأت ترثي لحال اليسوعيين ، وأنت واقع تحت إغراء الكتابة في مصلحتهم »^(٦٣) لقد كان في قلب فولتير دائما رصيد من الشفقة والعطف ، والآن وقد بدا أن المعركة ضد جماعة يسوع قد كسبت تماما فإنه كان يسمع أصواتا من اللوم والعتاب من معلميه الذين قضوا نحبتهم . وأخذ إلى داره في فرني أحد اليسوعيين السابقين ،

هو الأب آدم الذى تسلم صدقاته ، وغلبه دائما فى الشطرنج . وحذر فولتير شالوتيه بقوله « إحترس حتى لا يوقع الجانسنيون يوما من الضرر والأذى قدر ما أحدث اليسوعيون وماذا يفيدنى أن إتخلص من الثعالب إذا أسلمونى للذئاب » (٦٤) . أنه نحشى أن يعمد الجانسنيون مثل البيوريتانيين فى القرن السابع عشر فى انجلترا إلى إغلاق المسارح ، والمسرح كل هوى نفسه الأثير لديه تقريبا ، ومن ثم كتب إلى دالمبير « كان اليسوعيون ضروريين ، وكانوا ضربا من التسلية ، وكنا نسخر منهم ، أما الآن فسوف يسحقنا المتحد لقون » (٦٥) . وكان على استعداد للصفح عن اليسوعيين لمجرد أنهم أحبوا الآداب القديمة والمسرحية (٦٦) .

وشاركه صديقه وعدوه فردريك الأكبر فى هذه المشاعر . وسأل الأميردى لين ١٧٦٤ : « لماذا قضوا على مستودع نفائس أثينا ورومه ، معلمى الإنسانيات وربما الإنسانية الممتازين ، وهم اليسوعيون ؟ أن التعليم سيعانى من القضاء عليهم ولكن حيث أن الأخوة الملوك الأكثر كثلكة ومسيحية وإخلاصا وإيمانا ورسولية قد طردوهم ، فانى وأنا الأكثر هرطقة سأجمع أكبر عدد منهم وأحافظ عليهم » (٦٧) .

وعندما أندر دالمبير بأنه سوف يأسف لهذا الود واللفظ وذكره بأن اليسوعيين كانوا يعارضون غزوه لسيايزيا أنب الملك الفيلسوف بقوله : « لا تنزعج من أجل سلامتى . أنى ليس لدى ما أخشاه من اليسوعيين ، إنهم يستطيعون تعليم شباب البلاد وهم أقدر على ذلك من غيرهم - حقا إنهم كانوا يعارضونى أثناء الحرب ، ولكنك بصفتك فيلسوفا يجدر بك إلا تلوم أحدا لكونه عطوفا رحيا مشربا بالروح الإنسانية تجاه أى فرد من الجنس البشرى مهما كان من أمر دينه أو الجماعة التى ينتمى إليها . حاول أن تكون فيلسوفا أكثر منك ميتافيزيقيا » (٦٨) .

وعندما حل البابا كليمنت الرابع عشر جماعة يسوع بأسرها ١٧٧٣ أبى فردريك السماح بنشر المرسوم البابوى فى مملكته . وظل اليسوعيون يحتفظون بممتلكاتهم وأعمالهم فى بروسيا وسيليزيا .

ولم تعكر كاترين الثانية صفو اليسوعيين الذين وجدتهم في الجزء الذي استولت عليه من بولاندة ١٧٧٢ ، وبسطت حمايتها على اليسوعيين الذين دخلوا إلى روسيا فيما بعد . وثابروا وصبروا في جسد متواصل حتى عودتهم (١٨١٤) .

٤ - التعليم والتقدم

ولكن من ذا الذي يتولى الآن تعليم شباب فرنسا بعد أن ذهب اليسوعيون ؟ هنا حدثت فوضى ، ولكن حدثت كذلك ثورة وإنقلاب في عالم التربية والتعليم .

إن شالوتيه وهو بعد متحمس لآتهامه لليسوعيين ، إنتهز الفرصة وقدم لفرنسا رسالة عن التعليم القومي « (١٧٦٣) هائل لها الفلاسفة مرحبين بها . والآن كانت دعواه تقوم على أساس أنه لا يجدر بالمدارس الفرنسية أن تنتقل من أخوة دينية (طائفة) إلى أخرى - على سبيل المثال من طائفة « الأخوة المسيحيين » إلى « طائفة الأوراتوريين » . أنه لم يكن ملحدا ، إنه على الأقل رحب بتدعيم الدين للفضيلة والاخلاق القويمة ، إنه يود تلقينها واحلاها المحل اللائق بها ، ولكنه لا يرضى بسيطرة رجال الدين على التعليم . وسلم بأن كثيرين منهم كانوا معلمين ممتازين لا ينافسهم أحد في صبرهم وجلدهم وأخلاصهم ، ولكنه إحتج بأن تحكمهم في فصول الدراسة بغلق الأذهان أن عاجلا أو آجلا دون الفكر الأصيل ، يغرس في نفوس التلاميذ الولاء لدولة أجنبية ، ويجب أن تلقن مبادئ الاخلاق مستقلة عن أى مذهب ديني « يجب أن يكون لقوانين الأخلاق الأسبقية على كل القوانين سماوية كانت أو بشرية ، وينبغي أن تستمر ولو لم تعلن هذه القوانين الأخيرة مطلقا » (٦٩) . إن شالوتيه كذلك رغب في غرس المبادئ ، ولكن كذلك أراد تلقين المثل العليا الوطنية (٧٠) « إني أطالب للأمة بتعليم يعتمد على الدولة وحدها (٧١) . ويجب أن يكون المعلمون علمانيين ، وإذا كانوا كهنة فيجدر ألا يكونوا من المنتمين لطائفة دينية . ويجب أن يكون الغرض من التعليم هو إعداد الفرد

لا للسماء بل للحياة ، ولا للطاعة العمياء بل للخدمة الممتازة في مجالات المهن والإدارة وفنون الصناعة . ويجب أن تكون الفرنسية لا اللاتينية لغة التعليم ، ويجب أن يخصص للغة اللاتينية وقت أقل وللإنجليزية والإلمانية زمن أكبر . ويجب أن يشتمل المنهج على قدر كبير من العلوم . ومن أدنى المراحل حتى الأطفال بين سن الخامسة والعاشر يمكن استيعاب مبادئ الجغرافيا والفيزياء والتاريخ الطبيعي . كذلك التاريخ ينبغي أن يكون له مكان أكبر في التعليم المدرسي . « ولكن الذي يعوز في العادة من يكتبون التاريخ ومن يقرأون التاريخ على حد سواء هو الذهن الفلسفي » (٧٢) . وهنا قلد شالوتيه فولتير أكلييل النار وشهد له بالسبق في هذا المضمار . وفي المراحل المتأخرة يجب أن يكون ثمة تعليم الفن وتربية الذوق . ويجب توفير الوسائل لتعليم الأناث ، ولكن ليس من الضروري تعليم الفقراء ، فإن ابن الزارع لن يتعلم في المدرسة خيرا مما قد يتعلم في الحقل ، وإن تعليمه شيئا غير هذا سيجعله غير راض عن طبقته .

وصعق هلفشيوس وترجو وكوندورسيه لهذا الرأي الأخير ، ولكن فولتير استحسنه وكتب إلى شالوتيه « أشكرك على تحريم التعليم على العمال . وأنا الذي أزرع الأرض إحتاج إلى عمال يدويين لا إلى رجال دين حليقي الرؤوس ، أرسل إلى أخوة جهلة حقاً ليقودوا مركباتي أو يهيوها للاستخدام » (٧٣) . وكتب إلى داميلافيل الذي كان قد إقترح التعليم للجميع « أشك في أن أولئك الذين يكسبون قوتهم باستخدام عضلاتهم يكون لديهم فسحة من الوقت ليتعلموا ، وسيموتون جوعاً قبل أن يصبحوا فلاسفة . . . وليس العامل اليدوي هو الذي يجب أن نعلمه بل البرجوازي ساكن المدينة » (٧٤) . وفي مواضع أخرى تنازل فأيد تعليم الجميع التعليم الابتدائي ، ولكنه كان يأمل في تقييد التعليم الثانوي إلى حد يسمح بترك فئة كبيرة من العمال اليدويين ليقوموا بالأعمال البدنية في المجتمع (٧٥) . إن أول مهمة للتعليم في رأي فولتير هي وضع حد للتعليم للسكنسي الذي رأى أنه مسئول عن الحرافات التي أمتلأت بها عقول الجماهير وعن تعصب الناس .

وبناء على طلب كاترين الثانية ١٧٧٣ رسم ديدرو « خطة لجامعة لحكومة روسيا ». واستنكر مثل شالوتيه المنهج التقليدي في عبارات نسمعها نحن اليوم :

« لا يزال يدرس في كلية الآداب لغتان ميثتان لا يستخدمهما إلا نفر قليل من المواطنين ، وهاتان اللغتان تدرسان لمدة ست أو سبع سنوات دون أن يحفظا . وتحت اسم البلاغة يدرس فن الكلام قبل فن التفكير ، وتحت اسم المنطق يملا الرأس بتفاصيل دقيقة من أرسطو . . . وتحت أسم الميتافيزيقيا تبحث نقاط تافهة معقدة تضع أساس التشكك والتعصب كليهما . وهناك تحت اسم الفيزياء نزاع لا حد له حول المادة ونظام العالم دون كلمة واحدة عن التاريخ الطبيعي (الجيولوجيا والميولوجيا) . أو عن الكيمياء وعن حركات الأجسام وجاذبيتها . وهناك تجارب قليلة جداً . ولا تزال الدراسة التشريحية قليلة وليس هناك جغرافيا^(٧٦) .

ونادى ديدرو بسيطرة الدولة على التعليم وبمعلمين مدنيين ، ومزيد من العلوم . فينبغي أن يكون التعليم عمليا يخرج الزراعين والفنيين المتخصصين والأفراد العلميين والمديرين . ويجب ألا تدرس اللغة اللاتينية إلا بعد سن السابعة عشرة ، ويمكن حذفها كلية إذا لم يتطلع الطالب إلى استخدامها . ولكن لا يمكن أن يكون الإنسان أديبا دون معرفة باليونانية وللاتينية^(٧٧) . وحيث أن العبقرية قد تظهر في أية طبقة فينبغي أن تكون المدارس مفتوحة أمام الجميع دون أجر ، ويجب أن يقدم الطعام للفقراء ويزودوا بالكتب بالمجان^(٧٨) .

وإذ هوجمت الحكومة الفرنسية على هذا النحو فأنها جاهدت لتفادي توقف التعليم نتيجة طرد اليسوعيين ، وخصصت الممتلكات المصادرة من الطائفة إلى حد كبير لإعادة تنظيم المدارس الخمسمائة في فرنسا . وجعلت هذه المدارس جزء من جامعة باريس . وحولت كلية لويس الأكبر إلى مدرسة للمعلمين لتدريب المدرسين ، وحددت الرواتب على أساس بدا معقولا .

وأعفى المدرسون من الضرائب البلدية ووعدهم بمعاش تقاعد عند إنتهاء الخدمة . وقبل البندكتيون والأوراتوريون والأخوة المسيحيون الانخراط في سلك المعلمين ، ولكن الفلاسفة شنوا حملة ضدهم احدثت أثرا يذكر . وظل المذهب الكاثوليكي جزءا هاما في المنهج ولكن العلوم والفلسفة الحديثة بدأت تحتل مكان أرسطو والاسكولاسيين (الفلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى) ، وحاول بعض المدرسين المدنيين أن ينقلوا أفكار الفلاسفة^(٧٩) . وأنشئت المعامل في السكليات مع أساتذة للفيزياء التجريبية ، وفتحت المدارس الفنية والحربية في باريس والأقاليم . وكانت ثمة تحذيرات كثيرة بأن خطة الدراسة الجديدة ستعمل على تحسين العقول لا الأخلاق . وقد تضعف الفضيلة والانضباط وتؤدي إلى الثورة^(٨٠) .

ومهما يكن من أمر فإن الفلاسفة بنوا آمالهم للمستقبل على اصلاح التعليم . إنهم بصفة عامة إعتقدوا بأن الإنسان خير طيب بالطبيعة ، وأن بعض انحرافات زائفة أو شريرة كهنوتية أو سياسية هي التي أفسدته ، وكل ما ينبغي عليه أن يفعل هو أن يظهر نفسه من الخداع والبدع ويعود إلى « الطبيعة » التي لم يحددها أحد بعد تحديدا مرضيا . وهذا كما سئرى كان لب الموضوع عند روسو . وقد لحظنا إيمان هلفشيوس « بأن التعليم يمكن أن يغير كل شيء »^(٨١) . وحتى فولتير المتشكك نفسه ذهب في بعض الحالات إلى أننا جنس من القردة يمكن أن يتعلم أن يتصرف تصرفا عقلانيا أو غير عقلاني^(٨٢) . وأصبح الإيمان بإمكانات التقدم التي لا حدود لها عن طريق تحسين التعليم والتوسع فيه أحد التعاليم الهامة في الديانة الجديدة . إن السماء واليوتوبيا هما الدلوان المتنافسان اللذان يحومان حول بئر المصير والقدر فإذا هبط أحدهما صعد الآخر ، والأمل يرفع الواحد منهما أو الآخر إلى أعلى كل بدوره . وربما إذا صعد كلا الدولين نحاليا وهنت المدنية وبدأت تفتى .

وفي ١١ ديسمبر ١٧٥٠ صاغ ترجو العقيدة الجديدة في محاضرة في

السوربون بعنوان « الخطوات المتعاقبة إلى الأمام في الذهن البشرى » :

« إن الجنس البشرى إذا تأملناه من القدم يبدو لعين الفيلسوف كلا مترامى الأطراف ، له مثل الكائن الفرد مرحلة طفولته وتقدمه . . . فتصبح آداب السلوك أكثر رقة وتهديبا والذهن أكثر تنورا ، وتتقارب بعضها من بعض الأمم التي كانت آنذاك منعزلة ، وتربط التجارة والعلاقات السياسية أركان الكرة الأرضية بعضها ببعض ، ويستمر الجنس البشرى بأسره فيما بين تقلبات الهدوء والعاصفة وتقلبات الأيام حلوها ومرها في مسيرته قدما ، ولو بخطى وثيدة نحو كمال يقترب منه دوما^(٨٣) . ووافق فولتير على هذا متردداً ، فهو يقول :

« قد نؤمن بأن العقل والصناعة سوف تتقدمان أكثر فأكثر ، وتحسن الفنون الناقصة . وأنه من بين الشرور والمساوىء التي تثتاب بني الإنسان ستختفى شيئاً فشيئاً الحزازات بين من يحكمون الأمم ، ولو أن تلك الحزازات ليست أقل الكوارث ، وأن الفلسفة بانتشارها على أوسع نطاق سيكون فيها عزاء لأرواح البشر عن المصائب التي يتعرضون لها في كل العصور^(٨٤) . »

ورحب الفيلسوف المختصر بتولى ترجو زمام السلطة في ١٧٧٤ لأنه ليس لديه ثقة بالجمهير . وتعلقت آماله باستنارة الملوك . إننا لانستطيع تعليم الرعاع والغوغاء - كما كان يسمى عامة الناس - لأنهم منهوكون بالسكد والسكدح قبل أن يتعلموا التفكير . ولكن في مقدورنا أن نعلم قلة تقترب من الذروة فيعلمون الحاكم أو الملك . أن حلم « المستبددين المستنيرين » هذا بأعتبارهم قادة مسيرة الجنس البشرى ، كان الرسالة الملصكية « المحفوفة بالمخاطر التي بنى عليها معظم الفلاسفة رؤيتهم للتقدم ، وكان لديهم هواجس كثيرة تنذر بالثورة ، ولسكنهم أوجسوا منها خيفة أكثر مما رغبوا فيها . ووثقوا أن العقل قد يكسب الطبقة الحاكمة إلى جانبه ، وأن الوزراء والحكام قد يستمعون إلى صوت الفلاسفة وينفذون الإصلاحات التي تحول دون الثورة ، وتسير بالجنس البشرى على طريق السعادة ومن ثم رحبوا بإصلاحات فردريك الثاني ، وإغتفروا آثام كاترين الثانية . ولو أنهم عاشوا لا يتهجوا

مجوزيف الثاني في النمسا . وما ثقتنا في الحكومة إلا أنها ذاك الأمل يبتعث من جديد ؟

٥ - الأخلاقيات الجديدة

بقيت مشكلة معلقة مرهقة . يكتب البقاء لدولة دون ديانة تدعم النظام الاجتماعي بالأمال والخاوف الحارقة للطبيعة (الجنة والنار) ؟ هل يمكن الاحتفاظ بأخلاق شعبية عامة دون إيمان شعبي عام في أصل سماوى للقانون الاخلاقي ، وإيمان باله بصير بكل شيء ، إله يثيب ويعاقب ؟ إن الفلاسفة (فيما خلا فولتير) زعموا أن هذه الدوافع ليست مطلوبة للأخلاق . ومع التسليم بأن هذا قد يصدق بالنسبة للقلة المثقفة ، فهل يصدق بالنسبة للباقيين ؟ وهل كانت أخلاق القلة المثقفة صدى أخلاقيا للإيمان الذي فقدوه ، وللتربية الدينية التي تلقوها ؟ وقامر الفلاسفة بفعالية الأخلاق الطبيعية . وكانت الشكوك تخامر فولتير فيها ، ولكن ديدرو ودالمبير وهلفشيوش ودي هولباخ ومايلي ، وترجو ، وغيرهم دافعوا عن أخلاق يمكن أن تكون مستقلة عن اللاهوت ، أخلاق قوية إلى حد الصمود أمام تقلبات العقيدة أو الإيمان . وكان بيل قد مهد الطريق بمحاولته التدليل على أن الملحدين قد يكونون على خلق مثل المؤمنين تماما ، ولكنه كان قد عرف الأخلاق بأنها عادة الإنسجام مع العقل ، وافترض أن الإنسان حيوان عقلائي ، كما أنه كان قد ترك العقل دون تعريف . وهل يكون المجتمع أو الفرد حكما على ما هو معقول ؟ وإذا اختلف المجتمع والفرد ، فماذا غير القوة يكون لها القول الفصل بينهما ؟ وهل يكون النظام الاجتماعي مجرد صراع بين تنفيذ القانون والتلصص منه ؟ وهل تخصي الفضيلة أو الأخلاق القويمة فرص الكشف فحسب ؟ أن ف . ف . توسان F. V. Toussin كان قد شرح الأخلاق الطبيعية في كتابه « العادات والاعراف » (١٧٤٨) ، وكان أيضا قد عرف الفضيلة بأنها « الدقة والأمانة في الوفاء بالالتزامات التي يفرضها العقل »^(١٥) ، ولكن كم من الناس يستطيعون التفكير ، أو كم من الناس ففكر بالفعل إذا كان هذا في مقدرته ؟ ألم يتشكل

الخلق (الذى يحدد الفعل) قبل أن ينمو العقل ؟ ألم يكن العقل مطية أقوى الرغبات ؟ تلك كانت بعض المشاكل التى واجهت الأخلاق الطبيعية .

وقبل معظم الفلاسفة شمولية حب الذات مصدرا أساسيا لكل الأفعال الإرادية أو الواعية ، ولديهم آمنوا بأن التعليم والتشريع والعقل قد تعمل كلها على تحويل حب الذات إلى تعاون متبادل ونظام إجتماعى . إن دامبير بنى فى ثقة الأخلاق الطبيعية على :

« حقيقة واحدة لا تقبل الجدل هى حاجة الناس بعضهم إلى بعض ، والالتزامات المتبادلة التى تفرضها تلك الحاجة وإذا نسلم بهذا إلى حد كبير ، فإن كل القوانين الأخلاقية تستتبعه فى تسلسل منتظم لا مناص منه ولا يمكن تفسيره . ولكل المشاكل المتعلقة بالأخلاق حل فوري فى قلب كل منا ، وهو حل قد تروغ منه أو تتحايل عليه أحيانا أهواؤنا وعواطفنا ، ولكنها لا تقضى عليه مطلقا . وحل كل مسألة بعينها يؤدي . . . إلى الجندر الأساسى وهذا بطبيعة الحال هو مصلحتنا الذاتية وهى المبدأ الأساسى فى كل الالتزامات الأخلاقية^(٨٦) .

وتبين لبعض الفلاسفة أن هذا يتطلب هيمنة العقل بصفه عامة فى الناس عموما - أى مصلحة ذاتية « مستنيرة » إلى حد كاف ترى اختيار النفس (الاختيار الذاتى) فى صورة كبيرة إلى حد يسمح بالتوفيق بين أنانية الفرد وخير الجماعة . ولم يشارك فولتير فى هذه الثقة فى ذكاء الأنانية وبدأ له التعقل عملية إستثنائية ، وآثر أن يؤسس الأخلاق على وجود غيرية (حب الغير) مستقلة عن حب الذات ، واستمد هذه الغيرية من شعور بالعدالة بثه الله فى الناس . واتهمه الأخوة بأنه يسلم القضية للدين .

ومذ افترض الفلاسفة شمولية حب الذات فأنهم بصفة عامة خلصوا إلى أن السعادة هى الخير الأسمى ، وأن كل اللذات مجازة مسموح بها إذا كانت لا تؤذى الجماعة أو الفرد نفسه .

وجريا على أساليب الكنيسة دبج جريم ودى هولباخ ومابلى وسانت

لامبير كتيبات تفسر الأخلاقيات الجديدة . ووجه سانت لامبير كتيبه « التعاليم الشاملة » إلى الأطفال في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة :

- س - ما هو الإنسان ؟
- ج - كائن له شعور وعقل .
- س - إذا كان هذا الكائن على ما تصف ، فماذا يجب عليه أن يفعل ؟
- ج - يسعى وراء اللذة ويتجنب الألم .
- س - أليس هذا هو حب الذات ؟
- ج - أنه النتيجة اللازمة له .
- س - هل يوجد حب الذات في كل الناس بقدر سواء ؟
- ج - نعم ، لأن كل الناس يهدفون إلى حفظ الذات وإلى تحقيق السعادة .
- س - ماذا تفهم من السعادة ؟
- ج - حالة مستمرة نجد فيها لذة أكثر مما نعاني ألما .
- س - ماذا يجب علينا أن نفعل لنبلغ هذه الغاية (الحالة) ؟
- ج - يجب أن نهذب عقولنا ونفعل ما يمليه علينا العقل .
- س - ما هو العقل ؟
- ح - معرفة الحقائق التي تفضي إلى سعادتنا ورفاهيتنا .
- س - إلا يقودنا حب الذات دائما إلى كشف تلك الحقائق والعمل بمقتضاها ؟
- ج - كلا ، فليس كل الناس يعرفون كيف يمارسون حب الذات .
- س - ماذا تعني بهذا ؟
- ج - أعني أن بعض الناس يمارسه نه ممارسة حقة وبعضهم يمارسونه ممارسة خاطئة .
- س - من هم هؤلاء الذين يمارسون حب الذات ممارسة صائبة ؟

ج - هم الذين يحاولون أن يعرف بعضهم بعضا ولا يفصلون سعادتهم عن سعادة الآخرين^(٨٧) .

وركز الفلاسفة في أخلاقهم العملية على ذكرياتهم عن الأخلاقيات المسيحية . فاحلوا محل عبادة الله ومريم والقديسين - وهي العبادة التي عاونت بطريق غير مباشر على الفضيلة - إخلاصا مباشراً للجنس البشرى ؛ أن الراهب سان بيير اقترح لفظة جديدة لفضيلة قديمة - البر والاحسان التي ترجمها ترجمة ضعيفة - وقصد بها العون الجاد المتبادل والتعاون مع الآخرين في أعمال الخير والبر المشتركة . ومع هذه أكد الفلاسفة كذلك على الإنسانية ، أي التحلى بالروح الإنسانية وحب الخير العام ، ولهذا جدورها وأصولها في ثمانية الوصايا التي أعلنها السيد المسيح . ولا بد أن رينال حين دمع قسوة الأوربيين مع السود والهنود (في الشرق والغرب) بأنها عمل غير إنساني ، عرف أن أسقفا أسبانياً هو لاس كاساس قد سبقه إلى هذا الأتهام في عام ١٥٣٩ . ولكن التحمس الجديد لمساعدة الفقراء والمساكين والمرضى والمظلومين كان يرجع أساسا إلى الفلاسفة . وفوق كل شيء إلى فولتير . أن اصلاح القانون في فرنسا يرجع إلى حملاته المتواصلة . وأشهر رجال الدين الفرنسيون بالصدقات ولكنهم آنذاك مارسوا رؤية الأخلاق العملية في المسيحية يبشر بها الفلاسفة ويدعون إليها بنجاح يذكر . ونمت الأخلاقيات أكثر استقلالاً وبنفصالاً عن الدين ، وفي مجالات الروح الإنسانية والعطف والتسامح وحب البشر والعمل على تعزيز السعادة الإنسانية والسلام انتقل الأمر من أساس لا هوتي إلى أساس علماني أو دنيوي ، وأثرت على المجتمع بشكل لم يعهد له مثيل من قبل .

وحين واجه الفلاسفة المشكلات الأخلاقية التي ولدتها الحرب ، تحاشوا التهامة على حين كانوا ياصحون بالسلام ، وأقر فولتير الحروب الدفاعية ولكنه دال على أن الحروب عملية سلب ونهب ، وأنها تؤدي إلى ضعف وفقر المنتصر والمهزم على حد سواء ، وأنها تجلب الغنى والثراء إلى نفر قليل

من الأمراء ومقاوى الحرب والعشيقات المملكات ، واحتج على غزو فردريك لسيليزيا ، وربما كان يعيه فى ذاكرته حين شرح فى مقال غاضب عن « الحرب » فى القاموس الفلسفى كيف يرتضى الضمير المملكى العدوان : « إن أحد علماء الأنساب يثبت لأحد الأمراء أنه ينحدر مباشرة من سلالة كونت عقد أبواه ميثاقا عائليا منذ ثلاثة أو أربعة قرون مع بيت لم تبق منه حتى الذكرى ، وكان لهذا البيت بعض الحقوق المزعومة فى الأقليم . . . إن الأمير ومجلسه يلمسون حقه على الفور . وهذا الأقليم الذى يبعد عنه بعدة مئات من الفراسخ ، يحتج عبثا بأنه لا يعرفه (أى الأمير) وأنه لا يرغب فى أن يكون تحت حكمه وأنه لىكى يسن القوانين لشعب هذا الأقليم يجب على الأقل الحصول على موافقتهم ورضاهم . إن الأمير يحشد على الفور عددا كبيرا من الرجال الذين لن يخسروا شيئا ، ويزودهم بالملابس الزرقاء الحشنة . . . ويأمرهم بالالتفاف يمنة ويسرة ويتقدم إلى ساحة المجد » .

وعلى الرغم من ذلك نصح فولتير كاترين الثانية بامتناسق الحسام لطرده الأتراك من أوربا ، وكتب مرثية وطنية للضباط الذين ماتوا من أجل فرنسا فى ١٧٤١ ، وبارك إنتصار الجيش الفرنسى فى فونتنوى .

ونبذ الفلاسفة القومية والوطنية على أساس أن هذه الأحاسيس والعواطف تعمل على تضيق مفهوم الإنسانية والالتزامات الخلقية ، وأنها جعلت من السهل على الملوك أن يقودوا شعوبهم إلى الحرب . وشجبت مقالة « الوطنية » فى القاموس الفلسفى « الوطنية » باعتبارها أنانية ضيقة الأفق . إن فولتير توسل إلى الفرنسيين إن يخففوا من تفاخرهم بسمو اللغة والأدب والفن والحرب ، وذكرهم بأخطائهم وجرائمهم ونقائصهم^(٨٨) . وكان مونتسكيو وفولتير وديدرو ودالمبير فى فرنسا كما كان لسنج وكانت وهردر وجيته وشيار فى ألمانيا ، أوريين طبيين ثم بعد ذلك فرنسيين أو ألمان . وكان أن ديانة واحدة ولغة واحدة كانتا قد أنشأتا « العالمية » فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ، فكذلك نمت العالمية فى القارة نتيجة لإنتشار اللغة والثقافة الفرنسيين .

وتحدث روسو في ١٧٥٥ عن تلك « الأذهان العالمية التي تهمل الحواجز التي أقيمت لتفصل بين الأمم بعضها عن بعض ، والذين مثل الذات العلية التي خلقتهم يحتضنون الجنس البشري بأسره في نطاق النزعة إلى عمل البر والخير^(٨٩). وفي مكان آخر كتب في مبالغه ملحوظة « لم يعد هناك فرنسي ولا ألماني . . . هناك فقط أوريبيون^(٩٠) » ولم يصدق هذا إلا على النبلاء ورجال الفسك ، ولكن في هذه الطبقات امتدت الروح العالمية من باريس إلى نابلي وبطرسبرج. وحتى في زمن الحرب اختلط رجال الأدب بأضربهم ممن هم في طبقتهم عبر الحدود ، فقد رحب المجتمع الباريسي بهيوم وهرراس وولبول وجيبون وآدم سميث ، بينما كانت فرنسا مشتبكة في حرب مع إنجلترا . وأحس الأمير دي لين أنه في وطنه بين أهله وعشيرته في كل عاصمة أوروبية تقريبا . والجنود أنفسهم كان لديهم شيء من هذه النزعة العالمية . قال فرديناند دوق بنزويك « أنه لما يشرف كس ضابط ألماني أن يخدم تحت لواء فرنسا^(٩١) وكانت في الجيش الفرنسي كتيبة بأكملها « السكتيبة الملكية الألمانية » مكونة من الألمان. ووضعت الثورة الفرنسية حداً لهذه النزعة العالمية في التوافق الشديد في العادات والعقول ، وتضاءلت هيمنة فرنسا ، وازدادت الروح القومية .

وهكذا نجد الثورة العسكرية التي كانت إلى حد ما نتيجة رد فعل أخلاقي ضد قساوات الألهة والكهنة قد انتقلت من نبذ اللاهوت القديم إلى أخلاق قائمة على أخوة عالمية اشتقت من أجمل جوانب العقيدة التي طرحت جانبا . ولكن المشكلة هي هل يمكن لقانون أخلاقي لايساندة ويدعمه الدين أن يحتفظ بنظام اجتماعي ؟ وهي مشكلة باقية دون حل ، وهي لاتزال تواجهنا .
أنا نعيش هذه التجربة الحرجة الدقيقة .

٦ - تراجع الديانة

وفي الوقت نفسه ، حتى الآن ، بدا الفلاسفة وكأنهم كسبوا المعركة ضد المسيحية . أن المؤرخ النزيه إلى حد الأعجاب هنري مارتن وصف شعب فرنسا في ١٧٦٢ بأنه جيل ليس لديه أي إيمان بالمسيحية^(٩٢) . وفي ١٧٧٠ قال المحامي العام سيجويه Siguier في تقرير له :

« سعى الفلاسفة بأحدى اليدين أن يشلوا العرش ، وباليدي الأخرى أن يقلبوا المذابح (أن يهدموا الكنائس) . وكان غرضهم أن يثيروا الرأى العام ضد النظم المدنية والدينية . وهذا الانقلاب على حد قولهم قد بدأ بالفعل . فإن التاريخ والشعر والقصص بل حتى القواميس قد تسربت إليها عدوى التسمم بالتشكك وعدم التصديق . ولا تكاد كتاباتهم تنشر قبل أن تطغى على الإقاليم مثل السيل الجارف ، وإمتدت العدوى إلى المصانع والأكواخ»^(٩٣) .

وكأنما كان أيضاً لهذا التقرير أن يجمع سيلفان ماريشال في ١٧٧١ « قاموس الماعدين » الذى توسع فيه بتضمينه ابيلاز وبوكاشيو والأسقف بيركلى^(٩٤) . وفي ١٧٧٥ أعلن رئيس أساقفة تولوز أن « الإلحاد الرهيب البشع أصبح الرأى السائد »^(٩٥) . وذهبت مدام دي ديفان إلى أن الإيمان بالمعجزات المسيحية أصبح خامدا مثله في ذلك مثل التصديق بالأساطير اليونانية^(٩٦) ، وبقي الشيطان ضربا من لغو الكلام ، والحجيم أضحوكة^(٩٧) . وأزعج علم الفلك الجديد رب اللاهوت في الفضاء وكأنما يتراجع عن الفضاء مع ارتياد الكواكب في زماننا هذا . وفي ١٨٥٦ تحدث توكفيل عن ضعف الثقة في الإيمان الدينى الذى أنتاب الناس في أو آخر القرن الثامن عشر^(٩٨) .

لقد بولغ في كل هذه التصريحات والبيانات ، وربما قبلت وباريس والطبقات العليا والاشقفة مائلة في أذهان ناشريها . إن حكم لى Lecky أكثر تميزاً وتحديدأ حيث يقول : إن الكتب والنشرات المعادية للمسيحية عبرت عن الآراء وأثبتت المطالب عند جمهور الطبقات المتعلمة . وتغاضى كل موظفى الإدارة في مصالح الحكومة جميعها عن انتشارها وتداولها ، أو قل أنهم رحبوا بهذا وذلك^(٩٩) . وظل عامة الفرنسيين متعلقين بعقيدة العصور الوسطى سلوى وعزاء لحياتهم الكادحة المرهقة ، فلم يقبلوا المعجزات القديمة فحسب بل الجديدة كذلك ووجد الباعة المتجولون سوقاً رائجة للتماثيل الصغيرة التى تمثل معجزات العذراء^(١٠٠) . وكانت التماثيل والمخلفات تحمل في المواكب بغية تفادى الكوارث العامة أو وضع حد لها وزوالها . واذحت الكنائس حتى

في باريس بالناس أيام الأعياد الكبرى في السنة الدينية ، ودوت أجراس الكنائس بالترانيم في المدينة تدعو الناس إليها . وكانت « الأخوات » الدينية تضم أعضاء كثيرين وبخاصة في مدن الأقاليم على الأقل . وأكد سيرفان لدى لمبير حين كتب إليه من جرينوبل (١٧٦٧) : « قد تدهش أيها الأخ لتقدم الفلسفة في هذه المناطق الهمجية غير المتمدينة » . وفي ديجون كان هناك ستون مجموعة من الموسوعة ، ولكن تلك كانت حالات استثنائية ، وبقيت البرجوازية الإقليمية في جملتها مخلصه للكنيسة .

وفي باريس وصات الحركة الجديدة إلى كل طبقة . وكان العمال يزداد عداؤهم للكنيسة ، وكانت المقاهي قد طردت الرب منذ زمن بعيد .

وروى أحد النبلاء كيف أن حلاقه قال له وهو يصنف شعره « أنت ترى ياسيدى أنى شخص مسكين تافه ، ولكنى مع ذلك لم يعد لى دين مثل أى إنسان آخر » (١٠١) . وواصل نساء الطقة الكادحة عبادتهن القديمة واستخدمن مسابحون في شغف زائد ، أما السيدات العصابات الأنيقات فقد اتبعن أسلوب الفلاسفة على أية حال ، واستغنين عن الدين إلى حد كبير ، وأرسلت كل منهن تقريراً في طلب القسيس حين تأكدن من دنو الأجل . وكانت معظم الصالونات الكبرى تتبع الفلاسفة . واحتقرت مدام دي ديفان هولاء الرجال ، ولكن مدام جيوفرين رحبت بهم في أمسياتها ، حتى أكتظت بهم مائدتها . وتكاثروا حول الأنسة لسبيناس وتصدر جريم صالون مدام ايبيناي ، ووصف هوراس وولبول الجو المكري للصالونات في ١٧٦٥ فقال :

« هناك إله وهناك ملك يجب القضاء عليهما . والرجال والنساء جادون في تدميرهما . أنهم يظنوننى دنسا لأن لدى بنية من إيمان (١٠٢) . . . والفلاسفة لا يطاقون ، وهم سطحيون متغطرسون متعصبون ، إنهم لا ينقطعون عن التبشير والدعوة ، وهم يهررون بالألحاد ، وقد لاتصدق مبلغ صراحتهم ، فلا تعجب إذن إذا عدت أنا يسوعياً (١٠٣) .

وعلى الرغم من ذلك اختارت الأكاديمية لعضويتها تسعة من الفلاسفة
في الإنتخابات الأربعة عشر التي جرت فيما بين عامي ١٧٦٠ و ١٧٧٢ ،
وجعلت دالمبير سكرتيرها الدائم .

وإلهم النبلاء في إبتهاج مشوب بالعداء للدين كل ما قدمته لهم العقول
القوية . وقال لاموث لانجون « كان الاتحاد سائدا إلى حد بالغ في المجتمع
الراقي ، وكان الإيمان بالله دعوة إلى الحماسة والسخف وإنتشر الكفر والبعد
عن الدين بين الأستقراطية بعد ١٧٧١^(١٠٥) . وكانت دوقة دانفيل ودوقات
دى شوازيل وجرامونت وهونتسون وتسى ربوبيات . وارتبط رجال
من ذوى المناصب الرفيعة في الحكومة - مثل شوازيل وروهان وموريياس
وبوفو وشوفيلين بأواصر الود والصدقة مع دالمبير وترجو وكوندورسيه .
وفي الوقت نفسه أوضح الفلاسفة لفرنسا أن النظام الإقطاعي تجاوز عمر
الفائدة المرجوة منه ، وأن الأمتيازات الوراثية جور متحجر طال عليه
الزمن ، وأن صانع الأحذية الطيب خير من لورد مبدع لا يصلح لأى عمل ،
وأن كل السلطة مستمدة من الشعب .

وسرت العدوى حتى إلى رجال الدين . وفي ١٧٦٩ قاس تشامفورت
درجة ترزعع الإيمان لدى رجال الدين تبعا لتسلسل مراتبهم الكنيسة :
« يجب أن يؤمن القسيس قليلا ، أما وكيل الكنيسة فيبتسم لأية قضية تثار
ضد الدين ، ويسخر الأسقف دون تحفظ ، ويضيف الكاردينال ملاحظه
بارعة أو نكتة ساخرة من عنده^(١٠٦) . وعدد ديدرو ودى هولياخ مجموعة
كهنة متشككين من بين أصدقائهم . وكان القساوسة تورنى وفوشية ،
ومورى ، ودى بولونى « من بين أكثر من يرددون آراء الفلاسفة »^(١٠٧) .
وأنا لنسمع عن « جماعة القساوسة ذوى العقول الناضجة » وبعض هؤلاء
السكينة الأذكاء كانوا ربوبيين ، كما كان بعضهم ملحدين - وعاد مسلييه إلى
الحياة . إن المركز دى شامتلولوكس أبلغ بريستلى حين كان يتناول العشاء مع
ترجو ١٧٧٤ « إن السيدين الجالسين أمامه هما أسقف أكس ورئيس أساقفة

تولوز ، ولكنها ليسا أكثر إيماناً منك أو مني ، وأكدت له أني مؤمن .
وأبلغني مسيولي روى الفيلسوف أني أنا الوحيد المدرك الواعي الذي عرف
أنه مسيحي « (١٠٨)

وكان للإلحاد بعض الأصدقاء حتى في الأديار . وتجنباً للفضيحة والعامه
كان دوم كولينيون يسمح لعشيقته بأن تكونا معه على المائدة حين يكون
الضيوف الآخرون من الأصدقاء الموثوق بهم . ولم يكن يسمح لطائفة
الرسوليين أن تتدخل في مآذاته ، ولكنه اعتبر الديانة نظاماً جديراً بالإعجاب
للحفاظ على الأخلاق عند العامة (١١٠) . وتحدث ديدرو (١٧٦٩) عن يوم
قضاه مع راهبين : « قرأ أحدهما المسودة الأولى لرسالة حديثة قرية جداً
عن الإلحاد ، زاخرة بالأفكار الجديدة الجريئة . وعلمت في شيء من
الدهشة أن هذه هي النظارية السائدة في أديارهم . وبالنسبة للبقية كان هذان
الراهبان نموذجاً فذاً الأديار . وكانا يتحلمان بالفكر والمرح والانبهاج
وحسن الية والمعرفة (١١٠) .

ويروي لنا مؤرخ كاثوليكي غيور أنه في أواخر القرن الثامن عشر كان
قد حل شعور بالاحترق ، مبالغ فيه ، ولكنه عام شامل ، في كل مكان ،
محل التبجيل الذي كانت الأديار الكبرى قد بثته في العالم الكاثوليكي (١١١) .

إن ازدياد التسامح نتج أساساً من تدهور الإيمان الديني . فمن السهل أن
نكون متسامحين إذا كنا غير مكترئين . إن نجاح فولتير في قضيتي كالاس
وسيرفنس حرك عدداً من حكام الأناليم إلى مطالبة الحكومة المركزية
بتخفيف القوانين ضد البروتستانت ، وتم هذا بالفعل ولم تلغ قوانين الهرطقة
ولكنها كانت تعقب بشيء من الاعتدال . وترك الهيجونوت في سلام كما كان
فولتير قد اقترح ، وأبدى برلمان تولوز ندمه ، بتطبيق مبدأ التسامح إلى
حد أرعج الملك (١١٢) . وأصدر بعض الأساقفة - مثل فيتز جيمس أسقف
سواسون ١٧٥٧ - رسالة كهنوتية يدعو فيها كل المسيحيين إلى اعتبار
الناس أخوة . (١١٣)

وأضنى فولتير على الفلاسفة شرف هذا الانتصار ، فكتب إلى دالمبير ١٧٦٤
« أن الفلاسفة وحدهم هم الذين إلى حد ما هذبوا سلوك الناس ، وإنه
لولاهم لشهدنا مذبحتين أو ثلاثاً من مثل مذبحه سانت برثلميو في كل قرن^(١١٤) .
وينبغي أن نلاحظ مرة أخرى أن الفلاسفة أنفسهم كانوا أحياناً متعصبين ،
أن دالمبير ومارمونتيل حرصا ما لشرب على كبح جماح فريرون (١٧٥٧)^(١١٥) ،
وطلب إليه دالمبير أن يقيم الدعوى القضائية على بعض نقاد الموسوعة
(١٧٥٧) ، وحثته مدام هلفشيوس على إسكات صحيفة كانت قد عرضت
بكتاب زوجها « الذكاء » ١٧٦٨ . وفي بعض المناسبات توصل فولتير إلى
السلطات لإيقف حملات التشهير بجماعة الفلاسفة والظعن فيهم والسخرية
منهم^(١١٦) . وبقدر ما كان هذا التشهير حقيقياً - أي افتراء مؤذياً - فقد كان
لتوسلاته ما يبررها .

وكان ثمة عوامل أخرى غير الفلسفة لنشر التسامح ، فإن الإصلاح
الديني على الرغم من أنه أقر العصب ، خلق فرقاً وشيعاً كثيرة . كان
بعضها قويا إلى حد الدفاع عن نفسه ، إلى درجة أن التعصب نادراً
ما تجاوز حد الكلام . وكان على هذه الشيع والفرق أن تتجادل وتقرع
الحجة بالحجة ، وقبلت اختبار العقل كارهة ، ورفعت من شأنه . إن ذكرى
الحروب « الدينية » في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وما نتج عنها من خسائر
إقتصادية ، حولت كثيراً من الزعماء الإقتصاديين والقادة السياسيين إلى
التسامح . ووجدت بعض مراكز التجارة مثل هامبرج وأمستردام ولندن ،
أنه من الضروري أن تصبر على مختلف المذاهب والعقائد التي يعتنقها
زبائنهم الذين يتعاملون معهم . إن ازدياد قوة الدولة القومية جعلها أكثر
إستقلالاً عن الوحدة الدينية باعتبارها وسيلة للاحتفاظ بالنظام الاجتماعي ،
وانتشار التعرف على مختلف المدنيات والثقافات أضعف ثقة كن عقيدة
في احتكارها للإله ، وفوق كل ذلك جعل تقدم العلوم من العسير على العقيدة
الدينية أن تصل إلى المساواة والهمجية مثل محاكمات محكمة التفتيش أو إعدام

السحرة . وتقبل الفلاسفة بسرور معظم هذه التأثيرات في دعايتهم من أجل التسامح واستداعوا بحق أن يدعوا بعض الفضل في الانتصار ، وكان مقياس نجاحهم أنه بينما في النصف الأول من القرن الثامن عشر كان دعاة الهيجونوت لا يزالون يعلقون على أعواد المشانق في فرنسا ، حدث في ١٧٧٦ أو ١٧٧٨ أن دعا ملك كاثوليكي سويسريا بروتستانتيا لأنقاذ الدولة .

٧ - الخلاصة

وهكذا انتهى كما بدأنا ، إذ نرى أن الفلاسفة واللاهوتيين - لا المحاربين والدبلوماسيين - هم الذين كانوا يحاربون معركة القرن الثامن عشر الحاسمة . وأنا كنا على حق في تسمية هذه الحقبة « عصر فولتير » . قال كوندورسيه « إن الفلاسفة من مختلف الأمم ، إذ اعتنقوا في تأملاتهم المصلحة العامة لبني البشر كونوا كتيبه قوية متحدة ضد أي وصف للخطأ أو أي لون من الظلم والطغيان ^(١١٧) ، وكانت على أية حال كتيبة متحدة . وسرى روسويتخلى عن الحياه والسلطان ، وكان يحاول التوفيق بين الفيلسوف والدين . ولكنه كان حقا صراعا من أجل النفس الإنسانية . ونتأججه بارزة بيننا اليوم .

وفي هذا الوقت ترك فولتير فرني لانتصاره في باريس (١٧٧٨) . إن الحركة التي كان قد قادها أصبح لها الغلبة في السيطرة في مجال الفكر في أوربا ووصفها فريريون عدوها اللدود بأنها « مرض العصر وحمافته ^(١١٨) » . وهرب اليسوعيون وولي الجانسينيون الأدبار ، وتغيرت كل نعمة المجتمع الفرنسي . ونهج كل كاتب في فرنسا تقريبا نهج الفلاسفة ، وسعى إلى كسب رضاهم . وباتت الفلسفة تحت مئات العنوانات وآلاف الشفاه ، « إن عبارة مديح من فولتير أوديدرو أو دالمبير كانت أثنى وأعظم قيمة من نيل الخطوة عند أي أمير ومن عطفه ^(١١٩) . ووقعت الصالونات والأكاديمية الفرنسية ، بل حتى وزراء الملك نفسه ، أحيانا ، تحت تأثير الفلاسفة .

واحتال الزوار الأجانب على الدخول إلى الصالونات طمعا في لقاء مشاهير الفلاسفة والاستماع إلى حديثهم ، حتى إذا هادوا إلى بلادهم نشروا الأفكار الجديدة . وها هو ذا هيوم . على الرغم من أنه استبق فولتير في كثير من

آرائه ، نراه ينظر إليه على أنه استاذ معلم . وبعث روبرتسون إلى فرني بكتابه القيم « شارل الخامس » وكان تشستر فيلد وهوراس وولبول وجاريك من بين المرسلين الكثيرين لفولتير في إنجلترا . وأسهم سمولت وفرانكلين وغيرهما في إعداد ترجمة إنجليزية لمؤلفات فولتير في سبعة وثلاثين مجلدا لنشرها في إنجلترا (١٧٦٢) . وفي أمريكا تأثر مؤسسو الجمهورية الجديدة تأثرا عميقا بكتابات الفلاسفة . أما في ألمانيا فيمكنك أن تستمع إلى ملاحظات جوته إلى اكرمان في ١٨٢٠ و ١٨٣١ :

« ليس لديك فكرة عن مبلغ تأثير فولتير ومعاصريه العظام على في شبابي ، وكيف تسلطوا على ذهن العالم المتحضر بأسره ... إنه يبدو لي أنه شيء رائع عجيب حقا أن ترى أي رجال هؤلاء الذين ظهروا في ميدان الأدب في فرنسا في القرن الأخير . وكم تتولاني الدهشة لمجرد النظر في هذا . إنها حركة التحول في أدب عمره قرن من الزمان ، والذي كان آخذا في النمو منذ عهد لويس الرابع عشر حتى أئبع الآن وأثمر وآتى أكمله . (١٢٠)

وشارك الملوك والملكات في التهليل والتصفيق لفولتير ، وناهوا عجا بأنهم في عداد أتباعه . وكان فردريك الأكبر من أوائل من أدركوا أهميته . والآن في عام ١٧٦٧ بعد ثلاثين عاما من التعرف عليه في كل معايب شخصيته وكل توقد ذهنه ، هال فردريك للانتصار في الحملة ضد الرجس والعار . وقوضت أركان صرح الخرافة من أساسها . « وستدون كل الأمم في حولياتها أن فولتير كان هو الذي أحدث هذا الانقلاب الجاري الآن في الروح الإنسانية في القرن الثامن عشر . (١٢١) وشاركت كاترين الثانية قيصرة روسيا وجوستاف الثالث ملك السويد في هذا التعلق . ومما لا نزاع فيه أن الامبراطور جوزيف الثاني كان مدينا بفضل روح اصلاحاته للفلاسفة ، ولو أنه لم يعلن عن نفسه بمثل هذه الصراحة . وتسلم المعجبون مقاليد السلطة في ميلان وبارما ونابلي ومدريد ، وكلها بلدان كاثوايكية . وفي ١٧٦٧ لخص جريم الموقف بقوله : (إني ليسرني أن أشهد جمهورية مترامية الأطراف

من ذوى العقول المثقفة تتكون فى أوربا . إن الاستنارة تنتشر فى كل مكان (١٢٢).

إن فولتير نفسه وقد قهر فى نفسه التشاؤم الذى يصاحب كبر السن ، نراة يردد نغمة الانتصار : (إن العقول الراجحة المشكاة تشكيا حسنا كثيره الآن ، وهى تتصدر الأمم وتؤثر فى سلوك الجماهير . وان التعصب الذى طغى فى الأرض لينحسر سنة بعد سنة جوره الكريه . وإذا لم تعد الديانة الآن تثير الحروب الأهلية فأننا مدينون بهذا للفلسفة وحدها . وبدأ الناس ينظرون إلى الصراعات الدينية وكأنها عرض فى مسرح العرائس فى السوق . إن العقل الذى يبسط سيطرته وحكمه ، ينسف فى كل لحظة أى جور يعيىض مؤذ قائم على الخداع والاحتيال من جهة ، وعلى الغباء من جهة أخرى (١٢٣).

ولنوف الرجل حقه . اننا قد نسلم بعد معرفتنا بتطرفات الثورة واسرافها وبرد الفعل الذى تلاها ، بأن الفلاسفة (باستثناء فولتير) كانت لديهم ثقة متفائلة فى الطبيعة البشرية ، وأنهم انتقصوا الان من قوة الغرائز التى تولدت فى آلاف السنين من عدم الشعور بالأمن ومن الوحشية والهمجية ، وأنهم بالغوا فى قوة التعليم لتنمية العقل ضابطا متحكما إلى حد كاف فى هذا الغرائز ، وأنهم عموا عن مطالب الخيال والعاطفة ، وصمت آذانهم عن صيحات المتهورين التماسا لعزاء الإيمان ، ولم يقيموا كبير وزن للتقاليد والنظم التى انتجتها قرون من التجربة والخطأ ، وأقاموا وزنا كبيرا للعقل الفردى الذى هو فى أحسن الظروف نتاج حياة قصيرة ضيقة محدودة . وإذا كانت هذه تقديرات خاطئة خطيرة فإنها لم تتأصل فى مجرد زهو أو غرور فكرى ، ولكن تأصلت كذلك فى طموح واسع الآفاق فى إصلاح البشر وتحسن أحوالهم . إننا مدينون لفلاسفة القرن الثامن عشر - وربما للفلاسفة الأكثر عمقا فى القرن السابع عشر - بالحرية النسبية التى ننعم بها فى الفكر والكلام والعقائد ، كما أننا مدينون لهم بالفضل فى تضاعف عدد المدارس والمكتبات

والجامعات ، وفي مئات من الاصلاحات الإنسانية في القانون والحكومة ،
وفي معالجة الجريمة والعلل والأدواء والأمراض العقلية . ونحن مدينون لهم
ولأتباع روسو بفضل الاستشارة العظيمة للذهن التي انتجت أدب القرن التاسع
عشر وعالومه وفلسفته ، وفن الحكم وإدارة شؤون الدولة فيه . وبسببهم
استطاعت دياناتنا أن تتحرر أكثر فأكثر من الخرافة البليدة الكثيرة واللاهوت
الذي يتهج بالتعذيب ، كما يمكنها أن تولى ظهورها لمعوقات التقدم وللاضطهاد ،
وتتبين الحاجة إلى عطف متبادل من مختلف نواحي جهلنا وآمالنا . وبسبب
هؤلاء فإننا هنا الآن نستطيع أن نكتب دون خوف ولا وجل ، ولو مع شيء
من اللوم . إننا إذا توقفنا عن تمجيد فولتير وتكريمه سنكون غير جديرين
بالحرية .

خاتمة في الفردوس

(شخصا الحوار البابا بندكت الرابع عشر وفولتير)
(المشهد : مكان في ذاكرة البشر الشاكرة)

بندكت : إني سعيد برؤيتك هنا ياسيدي ، فعلى الرغم من أنك آذيت كثيراً الكنيسة التي قدر لي أن أكون على رأسها طيلة ثمانية عشر عاماً ، فقد أحسنت صنعاً بشن الحملة على آثام الكنيسة وأخطائها والمظالم التي أخزتنا جميعاً في عصرك .

فولتير : أنت الآن كما كنت في حياتك أرق البابوات حاشية وأكثرهم صفحاً . وإذا كان كل خادم من خدم الله مثلك لتحققت من أن آثام الكنيسة هي خاصية طبيعية في الإنسان ، ولبقيت أجل وأحترم هذا النظام العظيم . وإنك لتذكر أنني لمدة خمسين عاماً إحرمت اليسوعيين .

بندكت : أذكر ذلك ، ولسكنك اشتركت في الهجوم عليهم في نفس الوقت الذي كانوا قد خفضوا فيه من دسائسهم السياسية ، وكانوا يقفون فيه بشجاعة ضد فسق الملك ومجونه وإباحيته .

فولتير : كان جديراً بي أن أعرف أكثر من أن أقف إلى جانب الجانسينيين في تلك القضية .

بندكت : حسناء أنت ترى الآن أنك أيضاً قد تخطيء مثل البابا . والآن وقد وجدتك معتدل المزاج ، دعني أحدثك لماذا بقيت أنا مخلصاً للكنيسة التي تخلت أنت عنها .

فولتير : أن هذا يشوقني كثيراً .

بندكت : أخشى أن أرهقك لأنني سأطيل الحديث ، ولكن تذكر كم ألفت أنت من مجلدات .

فولتير : كثيراً ما تاقت نفس لزيارة رومه ، وكم كان يسعدني أن تتحدث إلى بندكت : وكثيراً ما رغبت أنا في التحدث معك . ويجدر بي أن اعترف بأنني تمتعت بذكائك وبراعتك ، ولكن تألق ذكائك هو الذي ضللك . من العسير أن تكون متألماً بأرعا ومحافظاً ، إنه لا يروق العقول النشيطة كثيراً أن تقف إلى جانب التقاليد والسلطة ، وهناك ما يغيرها بالنقد . حيث يمكن أن تشعر بلذة الزعة الفردية والإبداع والجدة ، ولكن في الفلسفة يكاد يتعذر أن يكون الإنسان أصيلاً إلا إذا كان مخطئاً . وإني لأتحدث إليك ، لا بصفتي كاهناً أو رجل لاهوت ، ولكن بصفتي فيلسوفاً يتحدث إلى فيلسوف .

فولتير : أشكرك ، لقد كان هناك كثير من الشك في كوني فيلسوفاً .
بندكت : لقد كنت حصيفاً ، فلم تصطنع منهجاً جديداً . ولكنك ارتكبت خطأ فاحشاً أساسياً .

فولتير : ما هو ؟

بندكت : ظننت أنه من الميسور لذهن واحد على مدى حياة واحدة أن يكتسب هذا القدر من المعرفة وعمق التفكير ، مما يجعله صالحاً لينصب نفسه حكماً على حكمة الجنس البشري كله — على تقاليد ونظم شكلتها خبرة الناس وتجربتهم عبر القرون . فالتقاليد بالنسبة للجماعة هي بمثابة الذاكرة للفرد . وكما أن أي خلل في الذاكرة قد يؤدي إلى الجنون ، فإن أية مخالفة مفاجئة للتقاليد قد تنزلق بالأمة بأسرها إلى هاوية الجنون ، مثل فرنسا في الثورة .

فولتير : أن فرنسا لم تصب بالجنون ، ولكنها ركزت في عقد من السنين على ما تراكم من استياء وغيظ أثناء قرون من الظلم والجور ، فضلاً عن ذلك فإن « الجنس » الذي تتحدث عنه ليس « ذهنياً » ،

بل هو مجموعة وتسايل لأفراد غير معصومين من الخطأ ،
وليست حكمة الجنس إلا مجموعة مركبة من أخطاء الأفراد وحسن
تبصرهم ، وماذا حدد أى العناصر من هذا الحطام من الأفكار
سينتقل إلى الأعتاب والذرائى ويسترعى انتباه الزمن ؟

بندكت : إن نجاح الأفكار واخفاها فى تجارب الجماعات والأمم هو الذى
حدد البقاء لبعض الأفكار وفناء الباقى .

فولتير : لست متأكدا ، فرما كان التحيز متسر بلا ثياب السلطة هو
الذى حدد فى كثير من الحالات أى الأفكار يجب الاحتفاظ به ،
وربما منعت الرقابة ألفا من الأفكار الطيبة من الدخوال إلى تقاليد
الجنس البشرى .

بندكت : أظن أن خلفائى فكروا فى الرقابة وسيلة لمنع إنتشار الأفكار التى
قد تقوض الأساس الأخلاقى للنظام الاجتماعى ، والمعتقدات
المؤثرة التى تساعد الناس على احتمال أعباء الحياة وأنى لأسلم بأن
مراقبينا قد ارتكبوا أخطاء جسيمة مثل ما حدث مع جاليليو -
ولو أنى أرى أنا كنا أكثر اعتدالا معه مما سول اتباعك لكثير
من الناس أن يعتقدوا .

فولتير : قد تكون التقاليد اذن خاطئة ظالمة وتكون حجر عثرة فى سبيل
تقدم التفاهم . وكيف يتقدم الإنسان إذا حرم مناقشة التقاليد ؟

بندكت : ربما كان علينا أن نناقش التقدم أيضا . ولكن فلنطرح هذه المسألة
جانبا الآن مؤقتا . أعتقد أنه يجدر بنا أن نناقش التقاليد والنظم مع
حرصنا على ألا نهدم أكثر مما نبني ، ومع الحذر من أن الحجر
الذى نزعزعه من مكانه لا يكون ضروريا لتدعيم ما نريد الأبقاء
عليه . على أن نعى دائما حقيقة متواضعة ، تلك هى أن خبرة
الأجيال قد تكون أفضل وأحكم من عقل فرد عابر .

فولتير : ومع ذلك فالعقل أجل نعمة أنعم الله بها علينا .

بندكت : لا ، الحب هو أكبر نعمة . أنا لا أريد الأنتقاص من قيمة العقل ولكن يجب أن يكون خادماً للحب لا خادماً للغرور والزهو .

فولتير : أنا غالباً ما سلمت بهشاشة العقل وسهولة انقيادة . أنا أعلم نزوعه إلى أثبات كل ما توحى به رغباتنا . أن صديقي البعيد ديدرو كتب في مكان ما أن حقائق الشعور أكثر ثباتاً من حقائق العرض المنطقي^(١) . إن المتشكك الحقيقي لأبد أن يرتاب في العقل أيضاً . وربما بالغت أنا في العقل لأن ذلك الرجل المجنون روسو بالغ في الوجدان . وفي رأي أن إخضاع العقل للوجدان أشد خطراً من إخضاع الوجدان للعقل .

بندكت : إن الإنسان ، كل الإنسان ، محتاج إليهما كليهما في تفاعلهما . ولكني الآن أتساءل هل لك أن تصاحبني إلى خطوة أبعد ؟ إلا تتفق معي في أن انصع معرفة مباشرة هي معرفتنا أننا موجودون وأنا نفسكر ؟

فولتير : حسناً ؟

بندكت : إذن نحن نعرف الفسك بطريقة مباشرة أكثر مما نعرف أي شيء آخر .

فولتير : عجيب ! أعتقد أننا نعرف الأشياء قبل أن تتحول إلى انفسنا ونتبين أننا نفسكر .

بندكت : ولكن اعترف بأنك حين تنظر في نفسك تدرك حقيقة مختلفة تمام الاختلاف عن المادة التي تميل أحياناً إلى أن تختزل إليها كل شيء .

فولتير : أنا أشك في هذا ، ولكن استمر .

بندكت : واعترف أيضاً بأن ما تراه حين تنظره في داخل نفسك هو بعض من واقع الاختيار ومن حرية الإرادة .

فولتير : أنت تنطلق بسرعة . أيها الأب ، لقد اعتقدت يوماً بأنني نعمت

بدرجة معتدلة من الحرية ، ولكن المنطق أرغمني على قبول
القضاء والقدر .

بندكت : أى أنك أخضعت ما أدركت مباشرة لما انتهيت إليه من عملية
تفكير طويلة مزعزعة .

فولتير : أنا لم أستطع أن أدحض آراء صانع العدسات الصغير العنيد
سبينوا . هل قرأت له ؟

بندكت : بالطبع قرأت . إن البابا ليس مقيدا بقائمة معينة من الكتب المهدية.
فولتير : أنت تعرف أننا اعتبرناه ملحداً .

بندكت : يجدر بنا ألا نخلع النعوت والالقب بعضنا على بعض . أنه كان
محبيا إلى نفسه ، ولكنه كان مكثيا إلى حد لا يطاق . أنه
رأى الله بطريقة شاملة إلى حد أنه لم يترك مجالاً للشخصية الإنسانية.
أنه كان متدينا مثل أو غسطين ، وقديسا عظيما مثله .

فولتير : إني أحبك يا بندكت . أنك أرحم به مني .

بندكت : فلتتابع حديثنا ، أسألك أن توافق على أن الفكر والوعى
والأحاساس بالشخصية هي أعظم الحقائق المعروفة لنا بطريق مباشر.

فولتير : حسنا . . هذا مسلم به .

بندكت : وعلى هذا أشعر بأننى محق فى رفض المادية والاحاد والجبرية .
فكل منا روح والديانة تبنى على هذه الحقيقة .

فولتير : فلنسلم بكل هذا ، فكيف نجز تلك المجموعة الضخمة من سخافات
التي أضيفت إلى مذهب الكنيسة قرنا بعد قرن ؟

بندكت : أنا أعلم أن هناك سخافات كثيرة وأشياء كثيرة لا تصدق ، ولكن
الناس كانوا يتصايحون من أجلها ، وفى كثير من الأحيان نجد
الكنيسة فى تقبلها هذه الأعاجيب ، كانت تخضع للمطلب العام

الواسع الانتشار ، وإذا أنت انتزعت من الناس المعتقدات التي
نجيز لهم اعتناقها ، فانهم سيعتقون أساطير وخرافات لا ضابط
ولا حصر لها . أن الديانة المنظمة لن تخترع خرافة ، بل تحول
دونها . اقض على أية ديانة منظمة فسيحل محلها هذه المتاهة من
الخرافات المخلة التي تنشأ ضمناً على أبالة في المسيحية وتزيد في
جراحها . ومع ذلك ففي العلم أشياء لاتصدق أكثر منها في
الديانة . وهناك شيء أبعد عن التصديق من الاعتقاد بأن حالة
بعض سديم يدائي هي التي حددت وفرضت كل سطر في
رواياتك ؟

غولتير : وما بالك بحكايات القديسين غير القابلين للاحتراق حين يلقي بهم
في النار ، وحكاية القديس الذي ضرب عنقه ومشي ورقبته في
يده ، وحكاية مريم التي رفعت إلى السماء - أنا لم أهضم هذه
الحكايات كلها .

بندكت : أن معدتك كانت ضعيفة دائماً . إن الناس لا يجدون فيها شيئاً
عسيراً لأن هذه الحكايات جزء من عقيدة تساند حياتهم ويجدون
فيها بعض العزاء . وهذا هو السبب في أنهم لن يعيروك أذناً
صاغية طويلاً ، حيث أن أنفاس حياتهم لا تتوقف على الاصغاء
إليك - وهكذا ففي الصراع بين الإيمان والكفر ، فإن الإيمان
يكسب المعركة دائماً . أنظر كيف تكسب الكاثوليكية غرب
المانيا ، وتستعيد فرنسا الكافرة ، وتسود أمريكا اللاتينية ،
ويشتد عودها في أمريكا الشمالية ، حتى في أرض الحجيج
والبيوريتانيين .

غولتير : أنا أرى أحياناً ، أيها الأب أن ديانتكم تستعيد مكانتها ، لآعن
طريق صدق عقيدتكم ، ولا عن طريق الجاذبية في أساطيركم ،
ولا بفضاء استخدامكم البارع للمسرحية والفن ، ولكن

بفضل تشجيعكم الدقيق بشكل شيطاني للاخصاب بين الناس
عندكم . وأعتقد أن معدل التكاثر هو العدو رقم ١ للفلسفة ،
نحن نتناسل في القاعدة ونموت في القمة . وخصوصية السداجة تهزم
حدة الذكاء .

بنديكت : أنت تخطيء إذا اعتقدت أن معدل التكاثر هو سر نجاحنا . فان
شيئاً أعمق من هذا بكثير موجود ضمناً . هل أخبرك لماذا يعود
كل الأذكاء في كل أنحاء للعالم إلى حظيرة الدين ؟

فولتير : لأنهم تعبوا من التفكير .

بنديكت : لا ، ليس هذا تماماً ، إنهم إكتشفوا أن فلسفتكم لبس لها جواب
إلا الجهل واليأس . ويدرك العقلاء أن كل المحاولات فيما أسماه
أخوتكم « الأخلاق الطبيعية » أخفقت . وقد نتفق أنت وأنا على
أن الإنسان ولد وفيه غرائز تميل إلى النزعة الفردية تكونت في
آلاف السنين من الظروف والأحوال البدائية ، وأن غرائزه
الاجتماعية ضعيفة نسبياً ، وأن شريعة قوية من الأخلاق والقوانين
مطلوبة لترويض هذا الفوضى بالطبيعة ، وتحويله إلى مواطن
عادي مسالم . إن علماء اللاهوت عندنا أسموا هذه الغرائز التي
تسم بالنزعة الفردية « الخطيئة الأصلية الأولى » الموروثة عن
« آباؤنا الأوائل » ، أي أولئك الناس المرهقين الذين لا يخضعون
لقانون ، المعرضين دائماً للخطر ، الصيادين الذين كان لزاماً عليهم
أن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد للقتال والقتل من أجل الطعام
أو الرفاق ، وأن يكونوا مولعين بالاكسباب والمشاركة ، وأن
يكونوا قساة إلى حد العنف ، لأن أي نظام إجتماعي ساد بينهم ،
كان لابد أن يظل ضعيفاً ، ولكن عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم
في الأمن على حياتهم وممتلكاتهم .

فولتير : أنت لا تتحدث كما يتحدث البابا .

بندكت : قلت لك إنه ينبغي علينا أن نتحدث كما يتحدث الفلاسفة . فالبابا أيضاً يمكن أن يكون فيلسوفاً ، ولكن عليه أن يعبر عن نتائج الفلسفة بلغة مفهومة للناس فحسب ، بل كذلك بلغة خليقة بالتأثير على عواطفهم وسلوكهم . نحن مقتنعون - والعالم كله يعود إلينا لأنه يعلم - بأنه ليس ثمة قانون أخلاقي من وضع الإنسان بشكل صريح معترف به ، يمكن أن يؤثر بدرجة كافية حتى يضبط ويتحكم في الدوافع غير الاجتماعية في الرجل الطبيعي . إن الناس عندنا محكومون في حياتهم الأخلاقية - ولو أن هذا لا يلتزم مع الجسد - بقانون أخلاق تعلموه وهم أطفال في طور التشكيل ، باعتبارهم جزءاً من دينهم ، واعتباره من عند الله لامن عنديات الإنسان . أنت تريد أن تحتفظ بالأخلاق وتبذ اللاهوت ، ولكن اللاهوت هو الذي يجعل الأخلاقيات تستقر في أعماق النفس . ويجب أن نأخذ القانون الأخلاقي على أنه جزء لا يتجزأ من الإيمان الديني الذي هو أضمن ما يمتلك الإنسان ، لأنه عن طريق هذا الإيمان وحده تكتسب الحياة معنى ومنزلة سامية تعزز وجودنا وتضفي عليه شرفاً ونبلاً .

فولتير : وعلى هذا ابتدع موسى أحاديثه مع الله .

بندكت : إن الذهن الناصح لا يواجه مثل هذا السؤال

فولتير : أنت على حق تماماً .

بندكت : إني أعتذر لك تهكمك الفطير غير الناصح . إن جمهوراً وليكورغوس

(مشرع أسبرطة في القرن التاسع ق . م) ونوما وبومبيليوس

كانوا بالتأكيد على حق في أن يضعوا للأخلاق أساساً دينياً حتى

لأنهم تحت الضربات المتواصلة من أقوى غرائزنا ، وأنت

نفسك قبلت هذا حين تحدثت عن إله بئيب ويعاقب ؛ إنك

(م ١٨ - قصة الحضارة)

أردت أن يتمسك بخدمك بالدين ، ولكنك ظننت أن أصدقاءك
يمكن أن يعيشوا بلا دين .

فولتير : ما زلت أرى أن الفلاسفة يمكنهم أن يستغنوا عن الدين .
بندكت : كم أنت ساذج ! هل الأطفال أهل للفلسفة ؟ هل يستطيع الأطفال
أن يفكروا ويتأملوا ؟ إن المجتمع مؤسس على الأخلاقيات ،
وهذه مؤسسة على الشخصية ، والشخصية تتكون زمن الطفولة
والشباب . قبل أن يكون العقل موجهها ومرشداً بزمن طويل .
وينبغي أن نغرس الفضيلة في الفرد حين يكون صغيراً مطواعاً
غض الأهاب ، حيث تكون الفضيلة والأخلاقيات قوية إلى
حد يسمح بمقاومة نوازعه المشربة بروح الفردية . بل حتى
تفكيره الفردي . أخشى أن تكون قد بدأت تفكر بسرعة .
والعقل عمل فردي أساسي ، وإذا لم تحمّه وتضبطه الأخلاق
فانه يمكن أن يمزق مجتمعا لربما .

فولتير : إن بعض أحسن الرجال في عصرى وجدوا أن العقل فضيلة
وأخلاقيات كافية .

بندكت : كان هذا قبل أن يتغلب العقل القائم على النزعة الفردية والزمن
على آثار الديانة . إن نفراً قليلا من الناس مثل سبينوزا وبيل
ودى هولباخ وهلفشيوس قد يكونون قد عاشوا حياة طيبة بعد
تخليهم عن دين آباءهم ، ولكن من يدرينا أن فضائلهم لم تكن
نتيجة تعليمهم الديني ؟

فولتير : كان هناك مئات من الناس المعاصرين لي ، ممن كانوا خليعين
محتقرين على الرغم من تعليمهم الديني وعقيدتهم الكاثوليكية ،
مثل الكاردينال دييوا ولويس الخامس عشر .

بندكت : الدين كتبت عنهم مديحا يثير الاشمزاز .

فولتير : واحسرتاه! نعم ، كنت مثل بعض رهبانكم ، استخدمت بعض حيل وخدع تقية لأصل الى ما شعرت بأنه غايات طيبة .

بندكت : مهما يكن من أمر ، فليس ثمة شك في أن هنالك آلافا من الناس ممن يتمسكون بالعتيدة القويمة ، حتى ومن يواظبون على كل الطقوس ، يمكن أن يكونوا آثمين خطائين ومجرمين عريقين في الإجرام . إن الدين ليس علاجاً معصوماً من الخطأ للجريمة ، إنه ليس إلا مجرد عون في المهمة الشاقة ، مهمة تمدين الإنسان . وأننا لنعقد أن الناس بدون الدين يمكن أن يكونوا أسوأ بكثير مما هم .

فولتير : ولكن تلك الفكرة الرهيبة ، فكرة الجحيم ، حولت الإله إلى إلى غول بشع أشد قسوة من أى مستبد غاشم في التاريخ .

بندكت : أنت تمقت هذه الفكرة ، ولكنك إذا عرفت الناس معرفة أكثر وأفضل ، لأدركت أنه يجب إرهابهم بالخوف والعقاب . أن رأس الحكمة مخافة الله . وعندما فقد إبتاعك هذا الخوف بداؤا يتدهورون ويفسدون . إنك كنت محتشماً معتدلاً نسبياً في فسقك وفجورك ، وكان ثمة شيء جميل في علاقتك الطويلة بمدام دي شاتيليه ، ولكن علاقتك مع ابنة أختك كانت شائنة مخزية . ولم تجد شيئاً يستحق اللوم في سلوك صديقك الفاجر الداعر الدوق دي ريشيليو .

فولتير : وكيف كان يمكن أن ألومه ؟ إذن لتعرضت قروضي للخطر .

بندكت : أنت لم يمتد بك زمنك لترى كيف أن الإلحاد قارب أن يجعل من الإنسان أحقر حيران . هل قرأت المركيز دي ساد ؟ أنه في نشو الثورة الفرنسية نشر ثلاث قصص (٢) أوضح فيها أنه لو لم يكن

هناك إله لكان كل شيء مباحاً اللهم إذا كشف وكلاء القانون أمره .
وأشار إلى أن كثيراً من الأشرار الحبيثاء تزدهر أحوالهم في الدنيا ،
وكثيراً من الطيبين الفضلاء يعانون ويشقون ، وعلى ذلك فإنه إذا
لم يكن هناك جنة أو نار ، فليس ثمة معنى في أن نكون طيبين
لنسيء إلى ملذاتنا . وانتهى إلى أنه إذا لم تكن الإرادة حرة فليس
هناك مسئولية أخلاقية ، وليس هناك خير أو شر ، بل هناك
فقط ضعفاء وأقوياء والخير هو الضعيف ، والضعف هو الشر ،
حتى ولو كان لما يجد القوى - لذة في استغلال الضعيف ما يبررها .
وحاول أن يثبت أن القسوة أمر طبيعي وأنها غالباً ما تكون
سارة مرضية . وهكذا أقر كل ضروب اللذة ، بما في ذلك أحط
ألوان الانحراف وأبغضه ، حتى بدا آخر الأمر أن الخير الأعظم
يكن في إيقاع الألم وتلقيه ، أسلوباً من أساليب اللذة الجنسية .

فولتير : كان لزاماً أن يضرب هذا الرجل بالسوط حتى يموت .

بندكت : نعم إذا استطعت الإمساك به . أما إذا لم تستطع ؟ فكر في
الجرائم التي لا تحصى والتي ترتكب في كل يوم ، والتي لا تكتشف
والتي تفلت دون عقاب مطلقاً ، إنه من الضروري أن يكون
هناك قانون أخلاقي يمنع الناس من الإجرام حتى لو أحسوا أنهم
في مأمن من كشف أمرهم . فهل يكون عجيباً أن « عصر فولتير »
أبعد العصور عن الأخلاق وأكثرها فساداً في التاريخ . . ؟

أنا لن أذكر شيئاً عن « غادتلك » ولكن فكر في الملك ومنتدى
غزلانه « وفي الأدب الداعر الفاجر الذي كان يطع بكميات كبيرة
ويتداول على أوسع نطاق ، ويتلهف الناس حتى النساء على شرائه :
إن هذا الزاد الطائش ، والإثارة الجنسية تصبحيان طوفانا فاجراً
في أزمان الكفر وأرضه .

فولتير : يجب أن تعلم يا صاحب القداسة أن الغريزة الجنسية قوية جداً حتى عند بعض البابوات ، وأنها لا بد أن تجد متنفساً على الرغم من أى قانون .

بندكت : وبسبب قوة تلك الغريزة فانها تحتاج إلى ضوابط وقيود خاصة ، لا إلى تشجيع قطعاً . وهذا هو مادعانا إلى محاولة حصرها في حدود الزواج المنظم ، وعملنا كل ما في وسعنا لجعل الزواج المبكر حيزاً الإمكان . إنكم في مجتمعاتكم الحديثة تجعلون الزواج متعذراً للجميع اللهم إلا لللطائشين المسرفين ، أى ما بعد الوصول إلى مرحلة النضج الجنسي بزمن طويل . ومع ذلك تجعلون كبح جماح الغريزة الجذوية أمراً شاقاً عسيراً بالنسبة لهم بإثارة خيالهم الجنسي وشهوتهم الجنسية في كل لحظة بالأدب والمسرح ، بدعوى حرية الصحافة والمسرح .

فولتير : إن شبابنا لا يضارون كثيراً بحريتهم .

بندكت : أظنك مخطئاً . إن الرجل الذي تعود على الإخلاق الجنسية غير المشروع قبل الزواج نادراً ما يكون زوجاً أميناً مخلصاً ، والمرأة التي تفرط في عرضها قبل الزواج لن تكون زوجة أمينة إلا من قبيل الاستثناء ، وهكذا نساق إلى إباحة الطلاق بشروط يسيرة . إننا نجعل من الزواج سرّاً مقدساً رهيباً وعهداً بطول الصبر والأمانة - مدى الحياة ، ولكنكم تجعلون منه عقد عمل يحق لأى من الطرفين أن يفسخه ، أثر شجار عابر أو تطلعاً إلى رفيق أصغر سناً أو أكثر ثراء . إن كل بيت مفتحة الآن أبوابه كلها ، الأمر الذي يدعو إلى الانفصال ويشجع عليه . ووقع نظام الزواج في حالة من فوضى التقارب المؤقت التجريبي ، مما يشكل كارثة للنساء ويتقوض أركان النظام الأخلاقي .

فولتير : ولكن الزواج بواحدة فقط أمر غير طبيعي وغير محتمل ، أيها الأب العزيز .

بندكت : وإن أي كبت للغريزة أمر غير طبيعي ، ومع ذلك يستحيل قيام المجتمع دون كثير من هذه القيود ، وأعتقد أن الرجل أو المرأة مع رفيق (زوج) واحد وعدة أطفال أسعد من رجل أو امرأة مع عدة رفاق وطفل واحد ، وكيف ينعم رجل بالسعادة وقد طلق زوجته التي فقدت جمالها في الحمل وفي تربية أبنائه ، حين أثاره وجه جديد وقوام رشيق ؟

فولتير : ولكن بتحرملك الطلاق يجب أن تتسامح مع الزنى المنتشر انتشارا واسعا في الأقطار الكاثوليكية .

بندكت : نعم نحن هناك ضعفاء مجرمون . نحن ضعفاء بسبب الكفر والتخلي عن الإيمان ، وربما كان الزنى أفضل من الطلاق ، لأنه يهيء في الظاهر بيتا متحدا آمنا للأبناء ، وينتطوي على ارتباك وتشويش أقل الأسرة . ولكنني أشعر بالحجل لأننا لم نجد حلا أفضل .

فولتير : أنت رجل مؤمن مخلص أيها الأب ، إنى لأتنازل عن كل ما أملك إذا قدر لي إن أشاركك إيمانك وطيبة نفسك .

بندكت : ومع ذلك فمن الصعب إقناعك . وإنى ليتولاني اليأس أحيانا من كسب الرجال الأذكياء الأعمى أمثالك ، ممن تحرك أقلامهم مليوناً من لإلانس وتوجهها نحو الشر أو الخير . ولكن بعض أتباعك يفتحون أعينهم على الحقيقة المرة الرهيبة . فإن فتاقيع التقدم انفجرت في قرن شهد مزيداً من قتل الرجال والنساء بالجملة . ومزيداً من إجتياح المدن وتخريبها ، ومن تحجر القلوب وفسادها ، أكثر من أي قرن آخر في التاريخ . إن التقدم في المعرفة والعلم ووسائل الراحة والقوة ليس إلا تقدماً في الوسائل ،

وإذا لم يكن ثمة تحسين الغايات والأغراض أو الرغبات فلن يكون التقدم إلا وهما وخداعا . إن العقل يعمل على تحسين الوسائل ولكن الغايات تحددها الغرائز التي تتشكل قبل المولد وتتكون قبل نمو العقل .

فولتير : أنا ما زلت أثق في ذكاء الإنسان ، أننا سنحسن الغايات والوسائل معاً إذا صرنا أكثر اطمئنانا وأمنا على حياتنا .

بندكت : هل ستصبح أكثر أمنا واطمئنانا ؟ هل ينخفض معدل الجريمة العنيفة ؟ هل الحرب أقل فظاعة وبشاعة من ذي قبل ؟ أنك تتعلق بأمل كاذب في إن قوة التدمير في أسلحتكم سوف تعوقكم وتعوق أعداءكم عن الحرب . ولكن هل التقدم المتكافئ من السهم إلى القنبلة سيعوق الأمم عن تحدى بعضها بعضا حتى الموت ؟

فولتير : إن تعليم الجنس البشرى سيستغرق عدة قرون .

بندكت : في نفس الوقت إنظر إلى الخراب الروحي الذي نشرته دعايتكم . وربما كان هذا كارثة أفظع من أي خراب في المدن . أليس الالحاد مقدمة لتشاوم أعمق من أي تشاوم عرفه المؤمنون ؟ وأنت أيها الفتى الذائع الصيت ، ألم تفكر كثيراً في الأنتحار ؟

فولتير : نعم ، وحاولت أن أومن بالله ، ولكنني أعترف لك أن الله لم يعد شيئاً في حياتي ، وفي دخيلة نفسي شعرت أيضا بفراع في موضع إيمان طفولتي ، ولكن يحتمل أن يكون هذا هو أحساس أفراد وأجيال في فترة إنتقال فقط ، ولكن حفدة هؤلاء المتشائمين سيمرحون ويسرحون في حرية حياتهم ، وتمياً لهم سعادة أكثر من المسيحين المساكين الذين أظلمت حياتهم بالخوف من الجحيم .

بندكت : إن هذا الخوف لم يلعب إلا دوراً صغيراً في حياة الغالبية العظمى من المؤمنين . إن ما أثلج صدورهم هو احساسهم بأن سكرات

الموت لم تكن عبثاً غير دى معنى : بل مقدمة لحياة أكبر تصحيح
وتشفى فيها كل المظالم والقساوات الدنوية ، وسيكونون متمتعين
بالسعادة والسلام مع من كانوا يحبونهم ثم فقد وهم .

فولتير : نعم كان فى هذا راحة تامة ، مهما تكن خداعة . أنا لم أحس بها
لأنى أكاد لا أعرف والدنى ، ولم أر والدنى إلا نادرا ، وليس لى
أولاد معروفون .

بندكت : أنت لم تكن رجلا كاملا ، ولم تكن فلسفتك كاملة . هل عرفت
يوما حياة الفقراء ؟

فولتير : عرفت من الخارج فقط ، ولكنى حاولت أن أكون منصفاً
وعونا للفقراء الذين عاشوا فى ضياعى .

بندكت : لقد كنت سيداً فاضلاً ، وفطنت إلى أن الإيمان والعقيدة التى
اعتنتها هؤلاء الذين إستخدمتهم فى شبابك والتى لهم فيها عزاء
وسلوى ، يجب إن تتجدد عن طريق التعليم الدينى والقيادة ولكن
فى نفس الوقت كان إنجيلك المدمر الذى لا أمل فيه فيما وراء
القبر يسود فرنسا بأسرها . هل أجبت يوماً على سؤال دى
موسيه^(٣) ؟ بعد أن علمت أنت أو إتباعك الفقراء أن الجنة
الوحيدة التى يمكنهم الوصول إليها يجب أن يخلقوها هم أنفسهم
على الأرض أو فى الدينا . وبعد أن ذبحو حكاهمهم ، ويظهر حكام
جدد ، ويبقى الفقر بالأضافة إلى نخال وفساد وعدم إستقرار
أكبر من ذى قبل ، فماذا إذن تستطيع أن تقدم من عزاء للفقراء
المغلوبين على أمرهم ؟

فولتير : أنا لم أحبد قتل حكاهمهم ، وارتبت فى أن يكون الجدد أقرب
شبهاً بالقدامى ، ولكن اسوأ سلوكاً .

بندكت : لن أقول إن الثورة ليس لها ما يبررها مطلقاً ، ولكننا تعلمنا
من التجارب والخبرات التى تراكت ونقلتها إلينا الأجيال ، أنه

بعد كل انقلاب ، سيكون هناك ثانية سادة وأناس ، وأغنياء وفقراء نسبياً . نحن ولدنا جميعاً غير متساوين ، وكل لإختراع جديد وكل تعقيد جديد يضاف إلى الحياة أو الفكر يزيد في الهوة بين البسطاء والدهاة البارعين ، وبين الضعفاء والأقوياء . إن أولئك الثوريين المؤمنين تحدثوا عن الحرية والمساواة والأخاء ولكن هذه الأقانيم لا تتمشى مع بعضها البعض . لأنك إذا أقررت الحرية سمحت للتفاوتات وعدم المساواة الطبيعية أن تتضاعف إلى تفاوتات وفوارق ومصطنعة . فإذا حلت دون هذه التفاوتات كان عليك أن تقيد الحرية ، وهكذا تصبح مثلك العايا في الحرية ستاراً للاستبداد وفي عمرة هذا يصبح الأخاء مجرد كلمة .

قولبير : نعم هو كذلك .

بندكت : حسناً إذن ، ومن منا يقدم عزاء أكبر للغالبية التي لا مفر من أن تكون تكون مغلوبة على أمرها ؟ هل تظن أنك تحسن صنعاً أو تؤدي خدمة للكادحين في فرنسا وإيطاليا إذا إقنعتهم بأن أضرحتهم القائمة على جانب الطريق وصلبانهم وصورهم الدينية وتقدماتهم التقية مجرد شعائر سخيفة لا معنى لها ، وأن صلواتهم موجهة إلى سماء خالية ، وهل يمكن أن تكون ثمة مأساة أشد من أنه يجب على الناس أن يؤمنوا بأنه ليس في الحياة شيء إلا تنازع البقاء وليس فيها شيء أكيد على وجه اليقين إلا الموت . ؟

فولتير : أنا أشاركك شعورك أيها الأب . لقد أثر في نفسي وأزعجتني رسالة تلقيتها من مدام دي تلموند ، أنا أذكرها جيداً ، وجاء فيها « أرى ياسيدي ألا يكتب فيلسوف مطلقاً إلا ليحاول أن يجعل الجنس البشري أقل شراً وأقل شقاء مما هو عليه . وأنت الآن تعمل على النقيض من ذلك تماماً . أنت دائماً تكتب ضد الدين . وهو وحده القادر على كبح جماح الشر وتقديم السلوى والعزاء

إذا ألم الخطب^(٤) ، ولكن لى إيماني كذلك بأن الحق سيكون على مدى الأيام نعمة حتى للفقراء .

بندكت : ان يكون الحق حقاً إلا إذا بقي صادقاً عبر الأجيال . إن الأجيال السابقة تكذبك والأجيال القادمة ستلومك ، بل إن المنتصرين فى صراع الحياة سيلومونك على إنتزاعك الآمال من صدور المساكين وهى الآمال التى حملتهم على قبول المكافأة المتواضعة فى مجتمع مقسم إلى طبقات ، وهو تقسيم لامناص منه .

فولتير : أنا لا أستسلم لخداع الفقراء والمساكين خداعاً مزدوجاً على هذا النحو .

بندكت : نحن لا نخدعهم . أننا نعلمهم الإيمان والأمل والبر والاحسان ، وتلك كلها نعم حقيقية فى حياة البشر . أنكم سخرتم كثيراً من التثليث ، ولكن هل كانت لديكم يوماً أى فكرة عن الراحة النفسية التى أحس بها ملايين الملايين من الأنفس لمجرد التفكير فى أن الله نفسه قد نزل إلى هذه الأرض ليشاركهم آلامهم ومعاناتهم ، ويكفر عن خطاياهم ؟ وسخرتم من ولادة العذراء ، ولكن هل فى كل الأدب شىء محبب أو مؤثر أكثر رمزاً لبساطة النساء واعتدالهن ورمزاً لحب الأم ؟

فولتير : أنها قصة جميلة ، ولو أنك كنت قرأت كل مجلداتى التسعة والتسعين لوجدت أنى اعترفت بقيمة هذه الأساطير التى تبعث فى النفوس السلوى والعزاء .

بندكت : نحن لا نسلم بأنها أساطير ، أنها من بين أعمق الحقائق . إن آثارها من بين أكثر الحقائق يقيناً فى التاريخ . أنا لن أتحدث عن الفن والموسيقى اللتين خلقتهما ، وهما من أغنى تراث الإنسان . . .

فولتير : كان الفن ممتازاً . ولكن أغنيتكم الجريجورية كانت عبثاً كريهاً كثيراً .

بندكت : لو أنك كنت أكثر عمقا لقدرت قيمة طقوسنا وأسرارنا المقدسة .
إن احتفالاتنا تجمع بين المصلين في مسرحية حية وأخوة تشجع
على الوحدة ، وأسرارنا المقدسة هي حقاً أسم على مسمى من
أمارات أو علامات ظاهرية على نعمة وبركة باطنة داخلية ، وأنها
لراحة نفسية للآباء أن يروا طفلهم في التعميد والتثبيت مقبولاً في
جماعة العقيدة العريقة وفي ميراثها . وهكذا توحد الأجيال في
أسرة لا يحددها زمان ، ولا يعود الفرد فيها يحس أنه وحيد .
وإنه لمن أجل النعم للمخطيء أن يعترف بخطاياهم ويتلقى الغفران .
وأنتم تقولون إن هذا لا يعدو أن يكون مجرد سماح له بارتكاب
الذنب ثانية ، ونحن نقول بأن هذا يشجعه على أن يبدأ حياة
أفضل غير مثقلة بوزر الأثم . ألا يكافح أطباؤكم النفسيون من
أجل إيجاد بديل عن الاعتراف للكاهن ؟ إلا يخلقون مصابين
بالأمراض العصبية قدر ما يعالجون ويشفون ؟ أليس جميلاً إنه في
سر القربان المقدس يقوى الإنسان الضعيف ويتأثر باتحاده مع الله ؟
هل رأيت شيئاً أجمل من ذهاب الأطفال لأول عشاء رباني لهم ؟

فولتير : لا يزال يزعجني وبضايقني فكرة أكل الله ، أنها بقايا
عادات وحشية .

بندكت : أنك تخلط مرة ثانية بين الإشارة الظاهرية الخارجية والبركة
الباطنية . ليس ثمة شيء ضحل مثل التحريف ، إنك تحكم على
كل شيء من سطحه ، وتظن أنه عميق . وقد ضلل هذا
التحريف كل الحياة الحديثة . وفي الدين مر العقل الناضج بثلاث
مراحل : الإيمان والكفر والفهم .

فولتير : قد تكون على حق . ولكن هذا لا يبرر نفاق أساقفتك الآثمين
الخطائين ، أو اضطهاد الفكر الصادق المستقيم .

بندكت : نعم . كنا مذنبين . إن العقيدة طيبة لأخبار عليها ، ولكن القائمين عليها رجال ونساء عرضة للخطأ والأثم .

فولتير : ولكن إذا كان القائمون عليها عرضة للخطأ ، فلماذا يزعمون أنهم معصومون منه ؟

بندكت : إن الكنيسة تدعى العصمة فقط لأحكامها الوسمية الأساسية الموقرة جداً ، ويجب الكف عن الجدل في موضع ما ، إذا أريد للذهن أو المجتمع أن يعيش في هدوء وسلام .

فولتير : وهكذا نعود ثانية إلى الرقابة الخائفة والتعصب الوحشي الذميم اللذين كانا مصدر الأذى والهلاك في حياتي ، ومبعث الحزى والعار في تاريخ الكنيسة . ويمكنني أن أرى أبواب محاكم التفتيش مفتوحة من جديد .

بندكت : أرجو إلا يكون الأمر كما تقول . إن هذا كان يسبب ضعف البابوية ، إن محاكم التفتيش كانت قاسية . إن خلفائي كافحوا لوقفها .

فولتير : البابوات أيضاً مذنبين . أنهم نظروا برباطة جاش إلى قتل مئات اليهود أثناء الحروب الصليبية ، وتآمروا مع دولة فرنسا على قتل الالبيجنسيين (طائفة دينية ازدهرت في جنوب فرنسا فيما بين ١٠٢٠ - ١٢٥٠ م وأخيراً قضى عليها بتهمة الزندقة) . لماذا نعود إلى عقيدة استطاعت على الرغم من كل سحرها وفتنتها أن تولد مثل هذه الوحشية وما زالت تتغاضى عنها ؟

بندكت : أننا شاركنا في عادات عصرنا وسلوكه . ونحن نشارك الآن في تحسين الأخلاق . أنظر إلى قساوستنا ، أليسو ، مجموعة ممتازة من الناس في تعليمهم وتبليغهم وسلوكهم ؟

فولتير : هكذا يقولون لي . ولكن ربما كان هذا بسبب المنافسة . ومن يدري ماذا سيكفرون عليه ، حين يهيء لهم إنصارهم ذوو الأصل

العريق التفوق السياسى ؟ إن المسيحيين فى القرون الثلاثة الأولى من حقبتنا أشهروا بسمو الخلق لكنك تعلم كيف اصبحوا حين تسلموا مقاليد الأمور . إنهم قتلوا من أجل الخلاف الدينى أناسا أكثر مائة مرة مما قتل أباطرة الرومان .

بندكت : إن قومنا كانوا آنذاك بادئين فى التعليم ، فلنأمل أن نفعل أفضل مما فعلوه فى المستقبل .

فولتير : لقد أحسنت الكنيسة صنعا فى بعض الأحيان . ففى النهضة الإيطالية أظهر بعض خلفائك تسامحا لطيفا نحو الكفر . ولم يحاول غير المؤمنين أن يحرّموا المساكين من عقيدتهم التى توفر لهم العزاء والسلوى . أنا من جانبي لا أريد أن أدمر عقيدة الفقراء المساكين ، وأؤكد لك أن هؤلاء المساكين لا يطالعون كتبى .

بندكت : بارك الله فى المساكين الفقراء .

فولتير : فى نفس الوقت ، ينبغى أن تغفر لى ولأمثالى إذا واصلنا مساعينا لتنوير أقلية كبيرة العدد إلى حد كاف ، مصممة على أن تحول دون تسلط الكنيسة مرة ثانية على أفكار المتعلمين . وسيكون التاريخ غير ذى قيمة لنا إذا لم يعلمنا أن نكون يقظين حذرين ضد التعصب الطبيعى فى ديانة تقليدية تستغل القوة . إنى أجلك وأقدرك أعظم تقدير ، أيها الأب بندكت ، ولكن يجب أن ابقى كما أنا فولتير .

بندكت : ليغفر الله لك .

فولتير : المغفرة دعاء الجميع .

Obeyikanda.com

NOTES



CHAPTER XVIII

1. Pappas, J. N., *Berthier's Journal de Trévoux and the Philosophes*, 122.
2. Helvétius, *De l'Esprit*, Eng. translation, 414.
3. D'Alembert, *Mélanges de littérature, d'histoire, et de philosophie* (1759), in Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 3; Frankel, *Faith of Reason*, 7-8.
4. In Wolf, 39.
5. Duclos, *Considérations sur les moeurs*, 27.
6. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 55.
7. *Ibid.*, 54.
8. Taine, *Ancient Regime*, 288.
9. *Ibid.*
10. In Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 122.
11. Morley, *Diderot*, I, 169.
12. Mornet, 52.
13. Meslier, Jean, *Superstition in All Ages, or Last Will and Testament*, 30.
14. *Ibid.*, Sec. cxxxv.
15. cviii.
16. lxxvi, clxxxii-iii, and clx.
17. clx.
18. lii.
19. ii.
20. xxxii.
21. xc.
22. clx.
23. xl.
24. xii.
25. cxii.
26. clxi.
27. cliii.
28. cxlix.
29. clv.
30. Preface, p. 37.
31. cvii.
32. cxli.
33. clxvi.
34. clxii.
35. Preface, pp. 42-43.
36. cciv.
37. *Ibid.*
38. clv.
39. Preface, p. 41.
40. In Martin, K., 240.
41. *Ibid.*, 142.
42. 241-42.
43. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 56.
44. La Mettrie, *Man a Machine*, 4.
45. Walt Whitman's formula for war.
46. La Mettrie, 99.
47. *Ibid.*, 100.
48. 94.
49. 134.
50. 128.
51. In Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 305.
52. *Ibid.*, 316.
53. La Mettrie, 146.
54. *Ibid.*
55. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 316.
56. La Mettrie, 103.
57. Fellows and Torrey, II, 307.
58. La Mettrie, 122.
59. *Ibid.*, 129.
60. 149.
61. In Hazard, 128.
62. La Mettrie, 92.
63. Martin, H., *Histoire de France*, XV, 397.
64. La Mettrie, 119; Lange, F. A., *History of Materialism*, II, 86 f.

THE AGE OF VOLTAIRE

65. Parson, *Life of Voltaire*, II, 15.
66. Desnoirestères, IV, 198-200.

CHAPTER XIX

1. Crocker, L. G., *Embattled Philosopher*, 5.
2. *Ibid.*, 8.
3. 38.
4. Diderot, *Pensées philosophiques*, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 264.
5. Crocker, 65.
6. Diderot, *pensée xxvi*.
7. In Crocker, 68.
8. Wilson, A. M., *Diderot: The Testing Years*, 86.
9. Cru, R. L., *Diderot as a Disciple of English Thought*, 189; Wilson, A. M., 90.
10. Diderot, *Lettre sur les aveugles*, in *Oeuvres*, 601.
11. *Ibid.*, 608.
12. 629.
13. 631-32.
14. 650.
15. 617-22.
16. Crocker, 102-3.
17. Havens, *Age of Ideas*, 289.
18. Crocker, 77.
19. *Ibid.*, 83.
20. 87.
21. Brunetière, *Évolution des genres dans l'histoire de la littérature* (Paris, 1890), 210, in Wilson, *Diderot*, 169.
22. Diderot, art. "Encyclopedia."
23. Aldis, *Madame Geoffrin*, 91.
24. Hazard, 199.
25. Morley, *Life of Voltaire*, 198.
26. Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 316; Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 165.
27. Lévy-Bruhl, *History of Modern Philosophy in France*, 212.
28. Fellows and Torrey, 319.
29. *Ibid.*, 320.
30. Ortega y Gasset, *Toward a Philosophy of History*, 77.
31. Crocker, *Embattled Philos.*, 133.
32. Lough, K., ed., *The Encyclopédie: Selected Articles*, 6.
33. Pappas, *Berthier's Journal de Trévoux*, 181.
34. Wilson,
35. *Ibid.*, 163.
36. Pappas, 185.
37. Wilson, 160.
38. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 235; Wilson, 165.
39. Wilson, 169.
40. Becker, C., *Heavenly City of the 18th Century Philosophers*, 119.
41. Wilson, 283.
42. *Ibid.*, 288.
43. Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 52.
44. Wilson, 288-89.
45. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 175.
46. Wilson, 312.
47. *Ibid.*
48. 358.
49. 339; Crocker, *Embattled Philos.*, 237.
50. Wilson, 339.
51. Crocker, 239.
52. Green, F. C., in Diderot, *Writings on the Theater*, 12.
53. See Hazard, 202, and Naves, 98.
54. In Lough, *Selected Articles*, 180-83.
55. Diderot, art. "Philosophy."
56. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 23.
57. Art. "Philosophy."
58. Art. "Political Authority."
59. *Ibid.*
60. Lough, 43.
61. Morley, *Diderot*, I, 216.
62. *Ibid.*, 172.
63. Article "Privileges."
64. Article "Art."
65. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 5.
66. Diderot, *Prospectus*, in Havens, 307.
67. Wilson, 136.
68. Grimm, *Correspondance*, VII, 146.
69. Lough, *introd.*, xiv.
70. Art. "Encyclopedia."

CHAPTER XX

1. *Enc. Brit.*, XVII, 614.
2. Cru, *Diderot*, 234.
3. *Ibid.*, 395.
4. Dupée, F. W., *Great French Short Novels*, 8.
5. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 115.
6. *Pensées sur l'interprétation de la nature*, Sec. LVIII, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 276, and Wilson, *Diderot*, 194.
7. Faguet, *Dix-huitième siècle*, 334.
8. Letter of Sept. 2, 1769, to Sophie Voland.
9. Letter of Sept. 11, 1769.
10. Letter of Sept. 2, 1769.
11. Diderot, *Dialogues*, 34-35.
12. *Ibid.*, 43.
13. 53.
14. 57.
15. 69.
16. 79-80.
17. 93.
18. 96.
19. 105.

NOTES

20. 110.
21. Fellows and Torroy, *Diderot Studies*, II, 322.
22. Crocker, *Embattled Philosopher*, 318.
23. *Ibid.*, 320.
24. *Ibid.*, 409; Crocker, *Age of Crisis*, 124.
25. Letter to Damilaville, 1766, in Morley, *Diderot*, I, 20.
26. Cru, 65.
27. Diderot, *Jacques the Fatalist*, 125.
28. Diderot, *Plan for a University*, in La Fontainerie, *French Liberalism and Education in the 18th Century*, 279.
29. *Enc. Brit.*, IV, 419a.
30. Crocker, *Embattled Philos.*, 319.
31. Cru, 417.
32. Grinum, *Correspondance*, 1770, in Diderot, *Oeuvres*, 957-59.
33. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, 67.
34. *Ibid.*, 68.
35. These passages are listed in Diderot, *Jacques the Fatalist*, 271-73.
36. *Ibid.*, 8.
37. 166.
38. Crocker, *Embattled Philos.*, 268.
39. *Neveu de Rameau*, in Diderot, *Oeuvres*, 249.
40. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, 143 f.
41. *Oeuvres*, 191.
42. G. B. Shaw's phrase.
43. *Oeuvres*, 262, 270.
44. *Ibid.*, 222.
45. 218.
46. 268.
47. 220.
48. *Dialogues*, 119-20.
49. *Ibid.*, 146.
50. 140-41.
51. 154.
52. "Essay on Women," in *Dialogues*, 186.
53. Crocker, *Age of Crisis*, 101.
54. Crocker, *Embattled Philos.*, 340.
55. Crocker, *Age of Crisis*, 209.
56. *Ibid.*, 274.
57. *Neveu de Rameau*, in Crocker, *Age of Crisis*, 209.
58. *Ibid.*, 105.
59. 104.
60. *Supplement to the Voyage of Bougainville*, in *Dialogues*, 157.
61. Crocker, *Embattled Philos.*, 343.
62. Articles "Civil Liberty" and "Representatives."
63. Diderot, *Oeuvres*, Édition Assézat et Tourneux (Paris, 1875-77), IX, 16.
64. *Ibid.*, II, 413, in Morley, *Diderot*, II, 242-43.
65. Cru, 135.
65. Ellis, Havelock, *The New Spirit*, 62.
67. Havens, *Age of Ideas*, 342.
68. Crocker, *Embattled Philos.*, 398.
69. *Ibid.*, 393.
70. Diderot, *Salons*, I, 1.
71. *Ibid.*, 79.
72. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 230.
73. Diderot, *Salons*, I, 188.
74. Crocker, 176.
75. *Ibid.*, 196.
76. Chambers, F. P., *History of Taste*, 146.
77. *Ibid.*, 140 f.
78. Hauser, Arnold, *Social History of Art*, II, 533.
79. *Salons*, I, 418.
80. Morley, *Diderot*, II, 79.
81. Crocker, 19.
82. Cru, 287.
83. Wilson, 273.
84. Crocker, 243.
85. Wilson, 326.
86. Voltaire, *Phil. Dict.*, article "Rhyrne."
87. Wilson, 237.
88. Sime, *Lessing*, I, 209.
89. Diderot, *Paradox of Acting*, 14, 18.
90. Cru, 328.
91. *Hamlet*, III, ii.
92. Lee Strasberg, in Diderot, *Paradox of Acting*, introd., x.
93. Wordsworth's phrase.
94. Ellis, *The New Spirit*, 56.
95. Hazard, 383.
96. Crocker, *Embattled Philos.*, 232-33.
97. Michelet, V, 408n.
98. Morley, *Diderot*, I, 30.
99. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, II, 73.
100. Taine, *Ancient Regime*, 266.
101. Diderot, *Oeuvres*, 143.
102. Crocker, 26.
103. *Salons*, II, 354.
104. Crocker, 147.
105. *Ibid.*
106. Letter of July 14, 1762.
107. Crocker, 297.
108. *Ibid.*, 213-15.
109. 220.
110. "Regrets sur ma vieille robe de chambre," in *Oeuvres*, 733.
111. Crocker, 301.
112. Morley, I, 262.
113. Crocker, 302.
114. Marmontel, *Memoirs*, I, 360.
115. Morley, *Diderot*, I, 41.
116. Crocker, 292.
117. Wilson, 8.
118. Morley, I, 10.
119. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, ix.
120. Letter to King Stanislas Poniatowski in Aldis, *Madame Geoffrin*, 185.
121. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, vii.

THE AGE OF VOLTAIRE

CHAPTER XXI

1. Cumming, *Ian, Helvétius*, 36.
2. *Ibid.*, 57.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 258.
4. Cumming, 137.
5. Paron, *Voltaire*, II, 302.
6. Helvétius, *Treatise on Man (De l'Homme)*, Vol. II, p. 480.
7. Grimm, *Corresp.*, II, 262.
8. Helvétius, *Treatise on Man*, Section II, Ch. iii.
9. Helvétius, *De l'Esprit*, p. 11.
10. *Ibid.*, in Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 88.
11. Helvétius, *De l'Esprit*, 175, 222, 277.
12. *Treatise on Man*, IV, i.
13. *Ibid.*, III, ii and iv.
14. IV, xxiii.
15. IV, iii and i
16. VI, i.
17. *De l'Esprit*, p. 489.
18. *Treatise*, VII, iv.
19. *Ibid.*, I, iii.
20. II, xxi.
21. I, ix.
22. II, xxii.
23. I, iii.
24. I, x.
25. VII, i.
26. I, ii.
27. VII, i.
28. *De l'Esprit*, p. 174.
29. *Treatise*, IX, xxxi.
30. *Ibid.*, IV, xxi.
31. I, xiv.
32. I, xiii-xiv.
33. VII, xii.
34. VII, iii and iv.
35. Mordecai Grossman in Horowitz, *Claude Helvétius*, p. 18.
36. *Treatise*, V, iii-x.
37. *Ibid.*, VI, viii.
38. V, iii-iv.
39. V, iii.
40. *De l'Esprit*, p. 179; Cumming, 79.
41. *Treatise*, VI, i.
42. *De l'Esprit*, pp. 6, 17.
43. In Martin, K., p. 180.
44. *Treatise*, II, vii.
45. *De l'Esprit*, p. 269.
46. *Ibid.*, 47; Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 98.
47. *De l'Esprit*, 29.
48. *Ibid.*, 184, 144.
49. *Treatise*, IV, ii.
50. Horowitz, p. 100.
51. *Ibid.*, 111.
52. *Treatise*, VI, v and x.
53. *Ibid.*, VI, xv.
54. VI, vii and xi.
55. VIII, iii and v.
56. Brunetière, *Essays in French Literature*, p. 327.
57. Buckle, I, 624n.
58. Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 64.
59. Crocker, *Age of Crisis*, 123.
60. In Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 147.
61. Crocker, *Embattled Philos.*, 408.
62. Victor Cousin, *Histoire de la philosophie*, III, 201, in Buckle, I, 624n.
63. Morley, *Diderot*, II, 141.
64. Cumming, 218.
65. Morley, II, 142.
66. Grossman, 169.
67. Marmontel, *Memoirs*, I, 258.
68. Cumming, 139.
69. *De l'Esprit*, 87; Morley, II, 157.
70. D'Alembert, *Éléments de philosophie*, in Cassirer, *Enlightenment*, 4.
71. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 105.
72. Wickwar, *Baron d'Holbach*, 86.
73. *Ibid.*, 59-60; Mornet, *Origines*, 107.
74. Gooch, *Catherine the Great and Other Studies*, 192.
75. Marmontel, *Memoirs*, I, 256.
76. Morley, *Life of Voltaire*, 215.
77. Morley, *Diderot*, II, 193.
78. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 254.
79. Morley, *Diderot*, II, 194.
80. Rousseau, *Confessions*, 139.
81. Robertson, J. M., II, 254.
82. Morley, *Diderot*, II, 215.
83. Wickwar, 22.
84. *Ibid.*, 23, 27.
85. Diderot, letter of May 10, 1759.
86. Marmontel, I, 351.
87. *Ibid.*
88. Wickwar, 39; Burton, *Life of Hume*, II, 220.
89. Gibbon, *Memoirs*, in Messner, *Life of David Hume*, 485.
90. Priestley, *Memoirs*, I, 74, in Buckle, I, 621n.
91. Wickwar, 25.
92. *Ibid.*, 38.
93. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, II, 169.
94. *Ibid.*, 130.
95. Wickwar, 109.
96. Robertson, J. M., II, 272.
97. Grimm, *Corresp.*, Aug. 10, 1789.
98. *Ibid.*
99. Wickwar, 86.
100. D'Holbach, *Le Christianisme dévoilé*, in Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 291.
101. Wickwar, 126.
102. *Ibid.*, 135.
103. 127.

NOTES

104. *Phil. Dict.*, art. "God," Sec. 4.
 105. Morley, *Diderot*, II, p. 159.
 106. D'Holbach, *System of Nature*, preface, pp. viii-x.
 107. *Ibid.*, Vol. I, Ch. ii.
 108. I, i.
 109. I, ii and viii.
 110. I, xiii.
 111. I, iii.
 112. Morley, *Diderot*, II, p. 74.
 113. D'Holbach, *System*, I, Ch. xi.
 114. *Ibid.*, I, i.
 115. Dakin, *Turgot and the Ancien Régime*, p. 16.
 116. Martin, K., 175.
 117. D'Holbach, *System*, II, Ch. vi.
 118. *Ibid.*, II, v.
 119. I, xiii.
 120. *Ibid.*
 121. II, iv.
 122. II, v.
 123. II, xii.
 124. *System*, appendix, Ch. xxiii.
 125. *System*, I, xiii.
 126. *Ibid.*, I, vii.
 127. D'Holbach, *Morale universelle*, Vol. I, Ch. i, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, p. 362.
 128. *Ibid.*, 363.
 129. *System of Nature*, I, xv.
 130. *Ibid.*, appendix, xix.
 131. *System*, I, xiv.
 132. D'Holbach, *Politique naturelle*, Part IV, Ch. xxvii, in Wickwar, 182.
 133. *Éthocratie*, Ch. x, in Hazard, 264.
 134. *Politique naturelle*, Part VI, Ch. xiv.
 135. Cumming, 112.
 136. *Politique naturelle*, in Martin, K., 188.
 137. *Ibid.*, 189.
 138. Wickwar, 178.
 139. Martin, K., 189.
 140. Wickwar, 178.
 141. *System of Nature*, Vol. I, Ch. xiv.
 142. *Politique naturelle*, Part VI, Ch. xxxix, in Wickwar, 212-13.
 143. *Système social*, Vol. II, 151, in Cobban, *In Search of Humanity*, 166.
 144. *System of Nature*, I, xiv.
 145. D'Holbach, *Contagion sacrée*, 145, in Wickwar, 141.
 146. In Mornet, *Origines*, 103.
 147. *System of Nature*, I, i.
 148. *Système social*, II, ii, in Cassirer, *The Question of Jean-Jacques Rousseau*, 68.
 149. *Politique naturelle*, Part I, Ch. vi, in Frankel, *The Faith of Reason*, 71.
 150. Mornet, 103.
 151. Lansrey, *L'Église et les philosophes*, 331.
 152. *Phil. Dict.*, art. "God."
 153. Wickwar, 89.
 154. Morley, *Diderot*, 183.
 155. Faguet, *Literary History of France*, 497.
 156. Wickwar, 111.
 157. Hearnshaw, *Social and Political Ideas of . . . the Age of Reason*, 213.
 158. Wickwar, 113.

CHAPTER XXII

1. This is what Faguet forgot in one of the most biased essays in French literature; see, e.g., *Dix-huitième Siècle*, 210.
2. Wade, *Studies in Voltaire*, 67.
3. *Phil. Dict.*, art. "Emblems."
4. Noyes, *Voltaire*, 487.
5. *Phil. Dict.*, art. "God."
6. Desnoiresterres, V, 167.
7. Pomeau, *Religion de Voltaire*, 422.
8. Voltaire, *Works*, VIIb, 82.
9. Mornet, *Origines*, 82; Torrey, *Spirit of Voltaire*, 254, 283.
10. *Phil. Dict.*, in *Works*, VIIa, 62.
11. In Pomeau, 400, and Crocker, *Age of Crisis*, 385.
12. Parton, *Voltaire*, II, 432.
13. Pomeau, 159, 183.
14. Lévy-Bruhl, 185-86.
15. Letter of May 20, 1738, in Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, 115.
16. Voltaire, *Notebooks*, I, 402.
17. *Traité de métaphysique*, Ch. ix.
18. *La Loi naturelle*, in *Works*, Xb, 25-26.
19. *Ibid.*; Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 424.
20. Bottiglia, *Voltaire's Candide*, 108; Mowat, *Age of Reason*, 36.
21. Letter of Oct., 1753, to d'Alembert, in Desnoiresterres, V, 163.
22. In Torrey, *Spirit of Voltaire*, 87.
23. Letters of May 24 and Dec. 22, 1757.
24. Voltaire, *Oeuvres*, ed. Moland, XXXIX, 363. See also Pomeau, 301; Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 53.
25. Naves, 54-57.
26. *Ibid.*, 62-63; Pomeau, 302.
27. Campbell, *The Jesuits*, 453.
28. Nicolson, II, *Age of Reason*, 81.
29. In Smith, E., II, 510.
30. Pope, *Essay on Man*.
31. Parton, II, 215.
32. Voltaire, *Romans*, I, 165, 169.
33. *Ibid.*, 231.
34. 237.
35. 257.
36. Bottiglia, 249.
37. Pomeau, 318.
38. Martin, H., *Histoire de France*, IX, 117.
39. Pomeau, 319-21.
40. Calvin, *Institutes of the Christian Religion*, Eng. tr., I, 360.
41. Parton, II, 356.
42. Desnoiresterres, VI, 160.

NOTES

CHAPTER XXIII

1. Pomeau, 300.
2. Mornet, *Origines*, 206.
3. Gauchat, *Lettres critiques*, XV, 224, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 313.
4. Pomeau, 338.
5. Voltaire, letter of Dec. 8, 1776.
6. Palmer, R.R., *Catholics and Unbelievers*, 96.
7. *Ibid.*, 142.
8. Our account follows John H. Pappas, *Berthier's Journal de Trévoux and the Philosophes*.
9. *Ibid.*, 38.
10. 23, 137.
11. 48.
12. 128.
13. 48.
14. 205.
15. *Ibid.*
16. 184.
17. 186.
18. 110.
19. 113.
20. 119.
21. 122.
22. 131.
23. Desnoiresterres, III, 389.
24. Hazard, *Eighteenth Century*, 78.
25. Cornou, *Élie Fréron*, in Martin, K., 96.
26. Crocker, *Embattled Philosopher*, 240.
27. *Ibid.*
28. Brandes, II, 205.
29. *Ibid.*, 206.
30. Noyes, *Journal*, 51.
31. *Ibid.*, 71.
32. Lanfrey,
33. In Masson, *La Religion de Rousseau*, III, 31.
34. Crocker, *Journal of Crisis*, 382.
35. Lichtenberg, A., *Le Socialisme et la Révolution française*, 6n.
36. Crocker, *Emb. Philosopher*, 305.
37. Toth, *Woman and Rococo*, 224, 234.
38. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 305.
39. Toth, 234.
40. Letter of Jan. 10, 1758, in Naves, 53.
41. *Oeuvres*, 231, 239-40.
42. *Ibid.*, 235, etc.
43. Grimm, II, 373.
44. Palmer, *Catholics and Unbelievers*, 7.
45. Parton, II, 334.
46. Pappas, 85.
47. *Ibid.*, 114.
48. 117.
49. Fülöp-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 374.
50. Gay, *Voltaire's Politics*, 310.
51. Pappas, 119.
52. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 414.
53. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 201.
54. Lanfrey, 267; Campbell, *The Jesuits*, 482.
55. *Ibid.*, 483.
56. *Catholic Encyclopedia*, XIV, 982; Martin, H., XVI, 211; Ranke, *History of the Popes*, II, 447.
57. Campbell, 487.
58. *Ibid.*, 485.
59. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 251.
60. Robertson, J. M., *History of Free-thought*, II, 236.
61. Desnoiresterres, VI, 269.
62. Bertrand, *D'Alembert*, 132.
63. Lanfrey, 269.
64. *Ibid.*, 270.
65. Pappas, 135.
66. Pomeau, 317.
67. Gilbert, *Prince de Ligne*, 138; Carlyle, *Friedrich the Second*, VII, 470.
68. Campbell, *The Jesuits*, 639.
69. La Fontainerie, *French Liberalism and Education in the 18th Century*, 143, 149.
70. Cumming, *Helvétius*, 160.
71. La Fontainerie, 80.
72. *Ibid.*, 117.
73. *Ibid.*, 39; Desnoiresterres, VI, 239.
74. Letter of Apr. 1, 1766.
75. Lanson, *Voltaire*, 183.
76. Smith, P., *Modern Culture*, II, 446.
77. La Fontainerie, 240.
78. Sée, H., *Les idées politiques en France*, 142.
79. Mornet, *Origines*, 177.
80. Lacroix, *Eighteenth Century*, 265.
81. Helvétius, *Treatise on Man*, Vol. II, p. 402.
82. Brunetière, *Manual of French Literature*, 298.
83. Hazard, 369.
84. Bury, *Idea of Progress*, 149.
85. Smith, P., II, 614.
86. D'Alembert, *Éléments de la philosophie*, Ch. iv, in Hazard, 166.
87. Hazard, 169.
88. Voltaire, *Works*, XIXa, 89 f.
89. Hazard, 250.
90. Rousseau, *Sur le gouvernement de Pologne*, in Black, *Art of History*, 20.
91. Source lost.
92. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 211.
93. Bury, *Idea of Progress*, 203; Parton, II, 433.
94. Hazard, 126.

THE AGE OF VOLTAIRE

43. "Essay on toleration," in Voltaire, *Selected Works*, 78; Pomeau, 325.
44. Our account is based upon A. Coquerel's *Jean Calas et sa famille* (Paris, 1858), as summarized in Parton, II, 367.
45. Letter of Mar. 1, 1765.
46. *Ibid.*
47. Text in Parton, II, 356.
48. Letter of Mar. 29, 1762.
49. Letter of Sept., 1762, in Gay, *Voltaire's Politics*, 277.
50. Brandes, *Voltaire*, II, 196.
51. Voltaire, *Selected Works*, 86.
52. *Ibid.*, 113.
53. Parton, II, 433.
54. Mornet, *Origines*, 112.
55. *Selected Works*, 88.
56. *Ibid.*, 100, 108.
57. Voltaire, *Works*, IIb, 277.
58. Brandes, II, 214.
59. Desnoiresterres, VII, 469.
60. Parton, II, 397.
61. *Ibid.*
62. Desnoiresterres, VI, 493.
63. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 129.
64. Letter of Frederick the Great, Aug. 7, 1766.
65. Letter of Frederick, Sept., 1766, in Brandes, II, 331.
66. Diderot, *Oeuvres*, 220.
67. Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 260.
68. In Brandes, II, 232.
69. Voltaire, *Correspondance*, ed. Besterman, Letter 7584.
70. Pomeau, 311.
71. *Phil. Dict.*, art. "Superstition."
72. Letter of June 3, 1760.
73. Letter of Dec. 6, 1757.
74. Pomeau, 213; Bertrand, *D'Alembert*, 118.
75. Voltaire and Frederick, *Letters*, 283.
76. Parton, II, 285.
77. Letter to Damilaville, Apr. 5, 1765.
78. Frederick to Voltaire, Sept. 9, 1739.
79. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XLIII, 198-200.
80. *Selected Works*, 59.
81. *Phil. Dict.*, art. "Laws."
82. J. Gaberel in Parton, II, 428.
83. Luke xxi, 27-32.
84. *Questions of Zapata*, No. 58, in *Selected Works*, 34.
85. *Ibid.*, Nos. 65-66.
86. *Ibid.*, No. 66.
87. Parton, 286.
88. Letter of June 4, 1767.
89. *New Camb. Mod. History*, VII, 152.
90. *Phil. Dict.*, art. "God."
91. Letter of Nov. 28, 1752.
92. *Oeuvres complètes*, XLI, 570, in Torrey, *Spirit of Voltaire*, 279.
93. *Phil. Dict.*, art. "Sin."
94. Pomeau, 373.
95. *Works*, Ib, 139.
96. *Phil. Dict.*, art. "Miracles."
97. Pomeau, 348.
98. *Ibid.*, 374.
99. *Phil. Dict.*, art. "Climate."
100. Art. "Grace."
101. *Profession de foi des théistes*, in Black, *Art of History*, 57.
102. *Works*, XIXa, 228.
103. *Ibid.*, 238.
104. *Traité de métaphysique*.
105. Crocker, *Age of Crisis*, 385.
106. *Ibid.*, 190; cf. *Phil. Dict.*, art. "Atheism," and art. "God," Sec. v.
107. Art. "Hell."
108. Art. "Fraud."
109. Art. "Morality."
110. Voltaire, *The Ignorant Philosopher*, Secs. II-III.
111. *Ibid.*, III-IV.
112. XIII.
113. XIV.
114. XVII, XIX.
115. XX.
116. XXIV.
117. LI.
118. *Works*, IIa, 312-16.
119. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 304.
120. Noyes, *Voltaire*, 555; Pomeau, 411.
121. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XXVI, 199, in Pomeau, 438.
122. Art. "Curate."
123. Pomeau, 439.
124. *Essai sur les mœurs*, Ch. cxxxix, in Ducros, *French Society in the 18th Century*, 199.
125. Desnoiresterres, VI, 118.
126. *Ibid.*, 63-64; Pomeau, 431.
127. Desnoiresterres, VII, 237.
128. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 225.
129. Desnoiresterres, VII, 228.
130. *Ibid.*, 287.
131. Pomeau, 390.
132. Diderot, *Letters to Sophie Volland*, I, 29; in Pomeau, 332.
133. Grimm, *Corresp.*, VII, 51.
134. Walpole, H., in Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 175; cf. Mornet, *Origines*, 139, and Morley, *Life of Voltaire*, 88.
135. Letter to Mme. du Deffand, June 1, 1770.
136. *Ignorant Philosopher*, Sec. xxiv.
137. Mark ix, 45-48; Matt. xiii, 40-42; Luke xvi, 23-26.

THE AGE OF VOLTAIRE

95. Buckle, I, 620.
 96. Parton, II, 507.
 97. Lecky, *History of . . . Rationalism*, I, 125.
 98. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 165.
 99. Lecky, *History of England*, V, 336.
 100. Mornet, *Origines*, 214-16.
 101. La Harpe in Taine, *Ancient Regime*, 400.
 102. Walpole, H., letter of Oct. 19, 1765.
 103. *Id.*, letter of Nov. 19, 1765.
 104. Mornet, 269.
 105. *Ibid.*
 106. Toth, *Woman and Rococo*, 234.
 107. Mornet, 272.
 108. Willey, *Eighteenth-Century Background*, 192.
 109. Taine, *Ancient Regime*, 293.
 110. Robertson, J. M., *History of Free-thought*, II, 278.
 111. Montalembert, *Monks of the West*, I, 86.
 112. Mornet, 141.
 113. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XLIII, 237.
 114. Letter of Nov. 9, 1764.
 115. Wilson, *Diderot*, 286; Palmer, *Catholics and Unbelievers*, 17.
 116. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 133.
 117. Condorcet, *Progrès de l'esprit humain*, 251.
 118. Mornet, 125.
 119. *Ibid.*, 273.
 120. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, 411, 529.
 121. Frederick to Voltaire, May 5, 1767.
 122. Grimm, *Corresp.*, Sept. 15, 1767.
 123. *Dict. Phil.*, art. "God."

EPILOGUE

1. Crocker, *Embattled Philosopher*, 407.
2. Sade, Marquis de, *Justine* (1791), *Juliette* (1792), *Philosophie dans le boudoir* (1793).
3. Musset, Alfred de, *Confessions of a Child of the Century*, 21 f.
4. Chaponnière, *Geneva*, 231.
5. *Phil. Dict.*, art. "God," Sec. IV, art. "Polytheism."